المدخــل

الى

تفسير القــرآن

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

سورة النحل: ٤٤

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف

هذه أبحاث أعدها سماحة الشيخ اليعقوبي في حدود سنة ٢٠٠٠ ميلادية / ١٤٢١هجرية لتكون مدخلاً لدرس في تفسير القرآن يلقيه على طلبة الحوزة العلمية في النجف الأشرف، يتسم بالاتجاه الاجتماعي الإصلاحي الأخلاقي الحركي، ومن الواضح أن هذه الأبحاث كتبت على نحو الاختصار والإشارة إلى بعض الأفكار على نحو رؤوس الأقلام كما يقولون، أملاً ببسط الكلام فيها حين إلقائها في الدروس.

لكن سماحته لم يتم هذا المدخل ولم يشرع في درس التفسير لانشغاله بتدريس الفقه والأصول وبعض المحاضرات الأخلاقية والتوعوية العامة، والمسؤوليات الاجتماعية بعد استشهاد أستاذه السيد الشهيد محمد الصدر (رضوان الله تعالى عليه) عام ١٩٩٩، لكنه شرح مقدمة هذا المدخل في عشر محاضرات تحت عنوان (شكوى القرآن) افتتح بها درس الأصول في محرم ١٤٢٢ الموافق نيسان ٢٠٠١ حيث كان يلقي دروسه في مسجد الرأس الشريف

الملاصق للحرم العلوي المطهر، وطبعت المحاضرات في كتابٍ مستقل بنفس العنوان أحدث وعياً اجتماعياً واضحاً واعيد طبعه مرات، ثم نشرها في المجلد الأول من موسوعة خطاب المرحلة صفحة ٩٥، وألحقها بتفسير قوله تعالى ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا)﴾ [الفرقان/ ٣٠] ضمن تفسير (من نور القرآن).

وبعد عدة سنين بدأ سماحته بالقاء محاضرات التفسير على شكل أقباس قرآنية تُجمع في تفسير (من نور القرآن) الذي صدر منه الى الآن سبعة مجلدات بفضل الله تعالى، وقد شُرِحَت بعض افكار هذا المدخل في أقباس الآيات المناسبة لها.

الناشر

ذو الحجة ١٤٤٦

الموافق ٦/ ٢٠٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل الى تفسير القرآن

المقدمة

القرآن رائد التغيير الاجتماعي:

(الجاهلية) في المفهوم القرآني ليست فترة زمنية مرّت بها الأمة وخرجت منها بفضل الله وبرحمته حين أرسل إليها نبيَّه الأكرم ﷺ، بل هي حالة اجتماعية تعيسة تتردى إليها البشرية كلما قادها جهلها ووهمها واسلست قيادها للشهوات واطاعت طواغيتها، و ابتعدت عن شريعة الله سبحانه وخلفت قوانينه وراء ظهرها[1]، قال تعالى ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] وقال تعالى ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقال تعالى ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦] فكل مجتمع لا يطبق شريعة الله سبحانه ولا يهتدي بهداه ويعيش بعيداً عن أحكامه فهو لا

---

(١) راجع التفصيل عند شرح هذه الآيات في تفسير (من نور القرآن)، ج٤، ص ٣٨١، دار الصادقين – النجف الاشرف، ط٢، ٢٠٢١م.

يستحق ان يسمى مجتمعاً أسلامياً، لذا ترى القرآن يسمي الذي لا يتصرف بحكمة ولا يكون حكمه مستنداً إلى شريعة الله سبحانه جاهلاً، قال سبحانه ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال تعالى ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال تعالى ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] وخلاصة كل ذلك قوله تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] .

ويمكن استشعار تجدد الحالة الجاهلية في الازمان التي تلت الاسلام من قوله تعالى ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ فكأنه ايحاء إلى وجود جاهلية آخرى آتية غير تلك التي استنقذهم منها، أما ماهي خصائص المجتمع الجاهلي، وماهي الصفات المشتركة بين جاهلية اليوم وجاهلية ما قبل الإسلام؟ وماهي الآلهة التي تعبد اليوم من

دون الله سبحانه كالطواغيت والعادات والرياضة ودور الازياء فلبحث ذلك كله محل آخر[١].

فإذا أرادت الامة ان تستعيد عافيتها وتعود إلى رشدها فعليها أن ترجع الى قيادة ما صلح به اوائلها من خلال التمسك بالقرآن، عن المقداد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال في حديث «...فَإِذَا الْتَبَسَتْ عَلَيْكُمُ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ ومَاحِلٌ [٢]مُصَدَّقٌ ومَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ ومَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ وهُوَ الدَّلِيلُ يَدُلُّ عَلَى خَيْرِ سَبِيلٍ...»[٣].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه[٤] « ... وَاعْلَمُوا أَنَّ هذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لاَ يَغُشُّ، وَالْهَادِي الَّذِي لاَ يُضِلُّ،

---

(١) راجع كتاب (شكوى القرآن) وقد ألحق بتفسير قوله تعالى (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) (الفرقان/ ٣٠)

(٢) أي خصم مُجادل مصدَّق. النهاية، ج ٤، ص ٣٠٣ (محل).

(٣) الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج٢ ؛ ص٥٩٩؛ كِتَابُ فَضْلِ الْقُرْآنِ؛ ح: ٢.

(٤) نهج البلاغة بشرح محمد عبده ج١ ص ٣٤٧ من خطبة اولها: انتفعوا ببيان الله واتعظوا بمواعظ الله.

وَالْمحَدِّثُ الَّذِي لاَ يَكْذِبُ، وَمَا جَالَسَ هذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلاَّ قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَة أَوْ نُقْصَان: زِيَادَة فِي هُدىً، أَوْ نُقْصَان مِنْ عَمىً.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَد بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَة، وَلاَ لاحَد قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنىً؛ فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لإوائكم، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاء، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَالْغَيُّ وَالضَّلاَلُ، فَاسْأَلُوا اللهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلاَ تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللهِ بِمِثْلِهِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْه، فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَاد يَوْمَ الْقِيَامةِ: أَلاَ إِنَّ كُلَّ حَارِث مُبْتَلىً فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرآنِ؛ فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلى أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَاسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ...».

ولكن الامة تركت كتاب الله وابتعدت عنه منذ أن اقصت العترة الطاهرة عن مكانها الذي اختارهم الله سبحانه له وهو الإمامة، ومن

خطل القول أن يقول قائل (حسبنا كتاب الله)[١] لأن الكتاب والعترة صنوان لا يفترقان - كما هو مضمون حديث الثقلين المشهور[٢]- فما تمسك بأحدهما من ترك الآخر وهم باب الله الذي لا يؤتى إلا منه، وقد أُمرنا بإتيان البيوت من أبوابها.

فمن أراد الله سبحانه وطلب الوصول إليه فعليه بالقرآن فقد «تَجَلَّى اللَّهُ لِخَلْقِهِ فِي كَلَامِهِ[٣] وَ لَكِنْ لَا يُبْصِرُونَ »[٤] كما هو مروي عن الامام جعفر الصادق عليه السلام، ومن أراد إصلاح نفسه وتهذيبها

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ؛ مجموعة محققين ؛ ج: ٥ ؛ ص: ١٣٥ ؛ الحديث: ٢٩٩٠ ؛ مؤسسة الرسالة ؛ الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «... أَلَا وَ إِنِّي مُخْلِفٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ الثَّقَلُ الْأَكْبَرُ الْقُرْآنُ وَ الثَّقَلُ الْأَصْغَرُ عِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي هُمَا حَبْلُ اللَّهِ مَمْدُودٌ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا سَبَبٌ مِنْهُ بِيَدِ اللَّهِ وَ سَبَبٌ بِأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ قَدْ نَبَّأَنِي أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ ..» الغيبة للنعماني ؛ النص ؛ ص٤٣ ؛ وراجع في مصادره كتاب المراجعات للسيد شرف الدين ؛ المراجعة ٨ رقم: ١٥ ذي القعدة سنة ١٣٢٩ ؛ تحقيق: حسين الراضي ؛الطبعة: الثانية ؛ ١٤٠٢ - ١٩٨٢ م ؛

(٣) أي ظهر لخلقه في كلامه، بمعنى ان كلامه تعالى دال عليه.

(٤) تفسير الصافي، ج١، المقدّمة الحادية عشرة في نبذ ممّا جاء في كيفية التلاوة وآدابها.

وتخليصها من ادرانها فعليه بالقرآن، ومن أراد اصلاح مجتمعه وتنظيم شؤونه وإقامة أمره على النظام والصلاح فعليه بالقرآن، فإنه الدليل لكل هدى والمرشد لكل خير وصلاح .

ومن العجيب أنك حين يعطل جهاز تذهب إلى صانعه لكي يصلحه فإنه الخبير به وإذا مرضت فتذهب إلى الطبيب المختص لكي يعالجك ثم عندما تريد أن تضع نظاماً يصلح البشرية ويخلّصها من امراضها[(١)] تلتمس العلاج عند نفس البشر الناقصين العاجزين

(١) تعرض القرآن الكريم لجملة من الأمراض الاجتماعية الفتاكة وعلاجها، منها:

- الجهل وهو رأسها فأمر بالتفكر والتعلم والتدبر والتعقل في مئات الآيات.
- الفقر ففرض ضرائب مالية واجبة كالخمس والزكاة ومستحبة كالصدقة لمساعدة الفقراء وإعادة تأهيلهم ليكونوا منتجين لا مستهلكين.
- الخنوع والعبودية والاستسلام وفقد الإرادة لتغيير الواقع الفاسد.
- طاعة السادة والكبراء والمتسلطين.
- اتباع تقاليد الآباء وموروثاتهم من دون دليل على حقانيتها.
- اتباع الكثرة بما يعرف السلوك الجمعي فخاطبهم بقوله (قل إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أن تقوموا لِلَّهِ مَثْنَى وفرادى ثم تتفكروا) (سبأ / ٤٦)
- الاستبداد والاستكبار فعالجها بقوله تعالى (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) (ال عمران/١٥٩).

القاصرين ولا تذهب إلى صانع هذا الإنسان وخالقه ومصوره والعارف بالنفس البشرية ودروبها ليضع لك العلاج.

وقد صدّقت التجربة التاريخية قدرة القرآن الكريم على إحداث هذا التغيير، فإن مقارنة بسيطة بين مجتمع ما قبل الإسلام وما بعده والنقلة العظيمة التي حصلت للأمة من أناس همج جهلة مشتتين قد تفشت بينهم الرذائل يتفاخرون بالمنكرات والقبائح إلى أمة متحضرة كريمة الاخلاق ذات نظام لم ولن تعرف الإنسانية مثله وبفترة قصيرة، كل ذلك ببركة هذا الكتاب الكريم وحامله العظيم صلى الله عليه وآله.

ولكنها خطط أعداء الله سبحانه واتباع الشيطان الذين علموا أن القرآن هو حصن هذه الأمة الحامي لها من الزيغ والانحراف، وأهل البيت عليهم السلام هم القيمّون عليه فأصروا على اقصائهم من قيادة الامة، فبقي الناس بلا راعٍ، والحصن بلا حامٍ، وأصبحت فريسة سهلة بيد الأعداء والمتربصين بها السوء.

فنحن إذنً بحاجة إلى اعادة القرآن إلى قيادة الحياة وامامة المجتمع وريادة الأمة واخراجه من عزلته بحيث اقتصر دوره على التلاوة في

المآتم بلا مصغٍ إليه وعلى افتتاح البرامج الاذاعية المنافية له صريحاً بحيث يعد وجوده فيها استهزاء به – والعياذ بالله –.

وفي إعادة القرآن إلى قيادة الحياة إحساس بوجود الله سبحانه فان الناس ليسوا بحاجة إلى اثبات وجود الله سبحانه بقدر حاجتهم إلى الإحساس بوجوده،فانهم مؤمنون به نظرياً، لكن هذا الايمان غائب عملياً – والعياذ بالله – حيث لا يراقبونه تعالى في اعمالهم، وهو يصرح ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد/٤]، وقد نُقل عن بعض المقدسّين ﷺ أنه سُئل هل توجد جنة ونار؟ قال لا، ووجه جوابه واضح رغم غرابته إذ لو كان الإيمان بها حقيقياً لرأينا أثر ذلك على أفعالنا، فإن تفاصيل حياتنا خالية من الاستشعار الحقيقي بوجود الله سبحانه بيننا على نحو «.. إِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[١].

وقد ركز القرآن على هذه المعاني وجعل محوره ان لا حقيقة في الوجود إلا الله سبحانه، وكل شيء غير مرتبط به فهو وهم، فما أحوجنا إلى إعادة القرآن إلى الحياة واخراجه من عزلته ولا شك أن أولى من يقدّر هذه الحاجة هم الحوزة العلمية الشريفة، فلماذا هذا

(١) الكافي (ط – الإسلامية) ؛ ج٢ ؛ ص٦٨

الإهمال لعلوم القرآن وتفسيره بعد أن كانت عند المتقدمين من الدروس الرسمية – إذا صح التعبير – في الحوزة الشريفة؟

وقد بالغ بعضهم حيث ذهب إلى عدم حجية ظواهر الكتاب بأدلة واهية بينما تراه يقول بحجية مطلق الظن ولو كان مصدره كتب غير معتبره مثل مصباح الشريعة وفقه الرضا وجامع الأخبار قال السيد الطباطبائي رحمه الله « ...وبلغ الافراط إلى حيث ذكر بعضهم أن الحديث يفسر القرآن مع مخالفته لصريح دلالته، وهذا يوازن ما ذكره بعض الجمهور: أن الخبر ينسخ الكتاب. ولعل المتراءى من أمر الأمة لغيرهم من الباحثين كما ذكره بعضهم:" أن أهل السنة أخذوا بالكتاب وتركوا العترة، فآل ذلك إلى ترك الكتاب لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " انهما لن يفترقا " وأن الشيعة أخذوا بالعترة وتركوا الكتاب، فآل ذلك منهم إلى ترك العترة لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: " انهما لن يفترقا " فقد تركت الأمة القرآن والعترة (الكتاب والسنة) معا ".

وهذه الطريقة المسلوكة في الحديث أحد العوامل التي عملت في انقطاع رابطة العلوم الاسلامية وهى العلوم الدينية والأدبية عن

القرآن مع أن الجميع كالفروع والثمرات من هذه الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى اكلها كل حين بإذن ربها، وذلك أنك إن تبصرت في أمر هذه العلوم وجدت أنها نظمت تنظيما لا حاجة لها إلى القرآن أصلا حتى أنه يمكن لمتعلم أن يتعلمها جميعا: الصرف والنحو والبيان واللغة والحديث والرجال والدراية والفقه والأصول فيأتي آخرها، ثم يتضلع بها ثم يجتهد ويتمهر فيها وهو لم يقرء القرآن، ولم يمس مصحفا قط، فلم يبق للقرآن بحسب الحقيقة إلا التلاوة لكسب الثواب أو اتخاذه تميمة للأولاد تحفظهم عن طوارق الحدثان! فاعتبر ان كنت من أهله»[1].

والقرآن صريح بأن هذه الأمة كالأمم السابقة لا قيمة لها إن لم تقم حياتها على أساس القرآن ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨] فإن قيادة الإنسانية أمر ثقيل عجزت السماوات والأرض عن حمله وحملها الإنسان ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ

(١)تفسير الميزان، ج٥، ص ٢٧٦.

عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاس لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] فلابد لمن يريد التصدي له أن يستند إلى ركن وثيق واساس متين وهو القرآن الحبل الممدود إلى الله سبحانه وبدونه يكون الإنسان بلا أساس ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ [المائدة: ٦٨].

وشعوراً بهذه المسؤولية تصدى عدد من علمائنا المحققين جزاهم الله خير جزاء المحسنين إلى العلوم المهملة في الدراسات الدينية رغم أهميتها في تكوين شخصية العالم الديني ومنهم العلامة الطباطبائي رحمه الله صاحب الميزان الذي كرّس نفسه للبحث والتحقيق في تفسير القرآن رغم أنه يعلم أن ذلك مخلٌّ في سمعة الفقيه والأصولي في ضوء الاعراف السائدة، لكنه ولإخلاصه رأى أن ذلك من تسويلات الشيطان وأنه ليس مبرراً معقولاً وحجة كافية أمام الله سبحانه لترك التصدي لسدّ هذه الثغرة فأبدع كتاب الميزان

الذي يعدّ خطوة حقيقية في المسلك الصحيح لتفسير القرآن – كما سنرى إن شاء الله تعالى – ولا شك أن فيه نفحات وإلهامات وفيوضات قدسية ليست من نتاج الأوراق، ونفس الكلام يجري على كتاب (مواهب الرحمن) للسيد عبد الأعلى السبزواري (رحمه الله).

ولكن تبقى هاتان المحاولتان وغيرهما غيض من فيض التفسير الحقيقي للقرآن الكريم لأن تفسير الكلام يعني شرح مراد وقصد المتكلم وبيان ما يريد إيصاله من معاني وهل يستطيع أحد أن يحيط ذلك وهو كلام الله سبحانه اللامتناهي وإذا كان مثل أمير المؤمنين عليه السلام في علومه لا يراها إلا من فوائد هذا الكتاب الكريم . رووا أنه عليه السلام سئل هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وآله شئ من الوحي سوى القرآن قال عليه السلام: « لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطي عبدا فهما في كتابه»[1].

فكم فيه من علوم ومعارف وآداب وسنن وتربية ويكفيه أنه كتاب يخاطب جميع العقول بجميع المستويات وفي كل الأزمنة ومختلف الظروف، فهو كما وصفه أمير المؤمنين عليه السلام: «...ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ

(١) التفسير الصافي، الفيض الكاشاني، ج١، ص٣١ ؛ تحقيق حسين الاعلمي.

الْكِتَابَ نُوراً لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ وَ سِرَاجاً لَا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ وَ بَحْراً لَا يُدْرَكُ قَعْرُهُ وَ مِنْهَاجاً لَا يُضِلُّ نَهْجُهُ وَ شُعَاعاً لَا يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ وَ فُرْقَاناً لَا يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ وَ تِبْيَاناً لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ وَ شِفَاءً لَا تُخْشَى أَسْقَامُهُ وَ عِزّاً لَا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ وَ حَقّاً لَا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وَ بُحْبُوحَتُهُ وَ يَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَ بُحُورُهُ وَ رِيَاضُ الْعَدْلِ وَ غُدْرَانُهُ وَ أَثَافِيُّ الْإِسْلَامِ وَ بُنْيَانُهُ وَ أَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَ غِيطَانُهُ وَ بَحْرٌ لَا يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ وَ عُيُونٌ لَا يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ وَ مَنَاهِلُ لَا يَغِيضُهَا الْوَارِدُونَ وَ مَنَازِلُ لَا يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ وَ أَعْلَامٌ لَا يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ وَ آكَامٌ لَا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ جَعَلَهُ اللَّهُ رِيّاً لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ وَ رَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ وَ مَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ وَ دَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ وَ نُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ وَ حَبْلًا وَثِيقاً عُرْوَتُهُ وَ مَعْقِلًا مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ وَ عِزّاً لِمَنْ تَوَلَّاهُ وَ سِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ وَ هُدًى لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ وَ عُذْراً لِمَنِ انْتَحَلَهُ وَ بُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ وَ شَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ وَ فَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ وَ حَامِلًا لِمَنْ حَمَلَهُ وَ مَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ وَ آيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ وَ جُنَّةً لِمَنِ اسْتَلْأَمَ وَ عِلْماً لِمَنْ وَعَى وَ حَدِيثاً لِمَنْ رَوَى وَ حُكْماً لِمَنْ قَضَى...»[1].

(١) نهج البلاغة شرح محمد عبده ج ١؛ ص٤٣٩؛ خطبة ١٩٨.

وقد أدّى كل مفسِّر ما يحسنه وما يفهمه من كتاب الله فجزاهم الله خير جزاء المحسنين لكن في كتاب الله الكثير مما لم يعرف ولم يكشف عن غوامضه، وما دام هو كتاب الجميع فإن الجميع يجدون ضالتهم فيه والاقتصار على اتجاه ما تحجيم له وخسارة كبيرة لمنافعه التي لا تحصى، فليأخذ منه أبناء كل جيل ما يفهمون وما ينطبق على مستواهم العلمي والحضاري وما يحل مشكلاتهم ولم تنتهِ معارف القرآن عندما قدّمه السابقون فإنه «...لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ...»[١] كما هو مضمون الحديث الشريف.

وليعلم كل مفسر أنه يقترب من حقيقة القرآن بمقدار ما يقع تفسيره ضمن الهدف الأساسي للقرآن والغرض الرئيسي له وهو تكميل النفوس وهداية البشر لما فيه صلاحهم ورشدهم في الدنيا والآخرة.

فعلى الله نتوكل ومنه نستمد التوفيق والتسديد لتسجيل الإطار العام الذي ينبغي أن يسير عليه المفسر وأساسيات التفسير، وسنتجنب الخوض في علوم القرآن الأخرى فإنها من مقدمات التفسير وادواته

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام؛ ص١٤؛ ايران؛ قم، طبعة: أولى، ١٤٠٩ هـ ق.

كما سنشير اليه[١]، وليست من التفسير نفسه ولا يجب علينا الخوض في كل هذه المقدمات فلها مظانها الخاصة بها.

(١)في صفحة: ٣٦.

الفصل الأول

معنى التفسير والتأويل

الفصل الأول:

معنى التفسير والتأويل

(١) معنى التفسير:

التفسير من الفسر وتفسير الكلام إظهار المعنى المراد منه والكشف عنه بعد أن كان مكنوناً في اللفظ ويحيط به اللفظ احاطة القشر باللب ومنه يقال في اللغة الدارجة لمن كسر شيئاً وفتَّته أنه (فسرّه).

وبيان المراد من اللفظ له مرحلتان:

الأولى: في تحديد المراد من نفس اللفظ مع قطع النظر عن مراد المتكلم أي أن هذا اللفظ لو ألقي مجرداً فماذا يراد منه وما هو المعنى الموضوع له، وهو ما نسميه في علم الأصول بالمراد الاستعمالي، وقد وضعت علامات لتمييز المعنى الحقيقي الذي وضع له اللفظ عن غيره كالتبادر وعدم صحة السلب وغيرها وليس هذا محل نقاشها.

الثانية: بيان مراد المتكلم حين استعمل اللفظ في هذا الكلام ويدخل فيه العموم والخصوص والإطلاق والتقييد والظاهر والباطن والحقيقة

والمجاز، لاحتمال ان المتكلم اراد المعنى المجازي لا الحقيقي أو ان هذا العموم ورد عليه مخصص فلابد من تخصيص العام وهكذا.

والمرحلة الثانية لاحقة للأولى فبعد تعيين المعنى الموضوع له اللفظ في المرحلة الأولى يأتي الحديث عن أن المتكلم هل أراد به معناه الحقيقي أو المجازي باعتبار ان الاستعمال أعم منهما معاً وهل أنه أراده على اطلاقه أم لا فيبدأ الفحص عن المقيَّد والمخصّص وكل ذلك يفهم من القرائن المتصلة والمنفصلة.

ويمكن تسمية المعنى الأول أي نتيجة المرحلة الأولى بالمعنى التصوري والثاني بالمعنى التصديقي والتمييز بينهما مهم جداً ويحلّ كثيراً من المشكلات التي أثيرت في محلّها والتي نشأت من الخلط بينهما، ونذكر على سبيل المثال خلافهم في دلالة الأفعال على الزمان ونقض كل من الفريقين على الآخر، فبينما كان يمكن إيقاع التصالح بينهما بأن يقال على نحو الاحتمال لا الجزم أن المدلول التصوري للفعل خالٍ من الدلالة على الزمان بينما المدلول التصديقي لا يمكن أن يكون كذلك.

والدخول في كلتا المرحلتين لابد منه في تفسير القرآن فعند التعرض لتفسير آية أو سياق لابد من فهم الأوضاع اللغوية للمفردات ثم تعيين المراد الحقيقي من الكلام بمساعدة القرائن المتصلة والمنفصلة على ما سيأتي بيانه عند الحديث عن المسلك الصحيح لتفسير القرآن.

(٢) معنى التأويل:

التأويل من الأوْل وهو الرجوع فيقال آل الأمر إلى كذا أي رجع إليه وتأويل الشيء[١] – قال الراغب– « هو ردّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، علما كان أو فعلا، ففي العلم نحو: ﴿وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران/ ٧]، و قوله تعالى:﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ [الأعراف/ ٥٣] أي: بيانه الذي غايته المقصودة منه»[٢] وفي مجمع البحرين: قوله ﴿ وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ [٣/ ٧] التَّأْوِيل إرجاع الكلام و صرفه عن معناه الظاهري إلى معنى أخفى منه... و تَأَوَّلَ فلان الآية أي نظر

(١) (في المفردات مادة فسر: ترادفهما).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن ؛ ص٩٩؛ دار القلم ـ بيروت ؛ الطبعة الأولى ؛ ١٤١٢ هـ.

إلى ما يؤول معناه. وفي: قوله ﴿ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [٣/ ٧] أي ما يؤول إليه من معنى و عاقبة»[١].

وفي حديث علي عليه السلام: «... فَمَا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله آيَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَقْرَأَنِيهَا وَ أَمْلَاهَا عَلَيَّ فَكَتَبْتُهَا بِخَطِّي وَ عَلَّمَنِي تَأْوِيلَهَا وَ تَفْسِيرَهَا...»[٢] أي معناها الخفي الذي هو غير المعنى الظاهري لما تقرر من أن لكل آية ظهراً و بطناً والمراد أنه صلى الله عليه وآله أطلعه على تلك المخفيات المضمونة والأسرار المكنونة.

المعنى المتحصل للتأويل:

والمعنى المتحصل للتأويل من مجموع الآيات الشريفة التي وردت فيها هي الحقيقة والمعنى الواقعي الذي يرجع إليه الشيء، فتأويل الرؤيا الأمر الخارجي الذي أنبات عنه وصورته كما ورد في سورة يوسف من رؤيا الملك أن سبع بقرات عجاف يأكلن سبع بقرات سمان فكان حقيقتها أن سبع سنين من القحط تأكل نتاج سبع سنين من الزرع، ورؤيا السجينين أن احدهما يعصر خمراً والآخر تأكل

---

(١) مجمع البحرين ؛ ج٥ ؛ ص٣١٢ ؛

(٢) الكافي (ط – الإسلامية) ؛ ج١ ؛ ص٦٤ .

الطير من رأسه، وتأويل نفس رؤيا يوسف عليه السلام حين رأى الشمس والقمر واحد عشر كوكباً ساجدين له فكان حقيقتها قوله (عليه السلام) ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

وكذا تأويل أفعال العبد الصالح مع النبي موسى عليه السلام حيث كان ظاهر أفعاله وهو كسر السفينة ليغرق أهلها وقتل الغلامين ظلماً وإصلاح الجدار بينما كان تأويلها أي حقائقها غير ذلك كما بينها له (سوره الكهف) وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] أي أحسن عاقبة ومآلاً، وهو واضح فإن قوانين الخالق العارف بما يصلح العباد أفضل مما يضعه المخلوقون والقاصرون قال تعالى ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧] فان التطفيف في الميزان ظلم ويؤدي إلى تضييع الحقوق واختلال النظام .

وقال تعالى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي العاقبة التي أخبر بها وقوله تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا

بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩] أي بيانه وعاقبته ومآله وقال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] فهنا التأويل من سنخ الدلالة اللفظية أي المعنى الحقيقي الذي يرجع إليه اللفظ المتشابه الذي يحتمل عدة معان، ويكون في بعض معانيه الظاهرة فتنة وبلبلة للمعتقدات كآيات التجسيم فيجب ردّها إلى الآيات المُحكمة ليعرف معناها الحقيقي الذي أريد منها، ولكن الذين في قلوبهم مرض يرجعونها إلى معاني الفتنة والانحراف.

وإنما استقرأنا موارد الكلمة في القرآن لاستنباط معناها منه على ما هو المسلك الصحيح الآتي إن شاء الله تعالى من تفسير القرآن بالقرآن.

وقد ظهر: أنّ معنى تأويل الشيء: الحقيقة التي يرجع إليها الشيء ويؤول، فتأويل الأحلام هي الوقائع الخارجية التي ترمز إليها الرؤيا، وتأويل القصص والأخبار بيان نتائجها ومآلها، وتأويل الاحكام ارجاعها إلى المصالح والمفاسد الواقعية التي أنشأت الأحكام على

طبقها او ما نسميه بملاكات الاحكام وتأويل الألفاظ أي الكشف عن معناها الحقيقي المراد منها.

وينتج من هذا الفهم الواسع للكلمة عدة أمور:

الأول: أن الأقوال المتكثرة[١] في معنى التأويل قاصرة وناظرة إلى بعض الجهات دون بعض، كمن اقتصر على أنها من سنخ الدلالة اللفظية فاعتبر التأويل هو المعنى المخالف للظاهر وقد اشتهر بينهم حتى صاروا يذكرونه دون غيره رغم قصوره عن شمول كل موارد الآيات الكريمة المتقدمة بل لا ينسجم مع أكثرها، قال ابن منظور في لسان العرب: «... و المراد بالتَّأْوِيل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأَصلي إِلى ما يَحتاج إِلى دليل لولاه ما تُرِك ظاهرُ اللفظ ... »[٢]، وقد سمعت ما قاله في مجمع البحرين، قال الطباطبائي رحمه الله « ... بلغ هذا القول من الاشتهار بحيث أصبحت لفظة التأويل كالحقيقة الثانية في المعنى خلاف الظاهر فإن تأويل الآيات القرآنية في

(١) راجع الميزان: ٤٤/٣، القران في الاسلام: ٤٠ للسيد الطباطبائي

(٢) لسان العرب لابن منظور ؛ ج١١ ؛ ص٣٣، دار صادر- بيروت، طبعة: ٣، ١٤١٤هـ

المباحث الكلامية والخصام العقائدي يعنى هذا المعنى بالذات...»[١].

اقول: لا ادري كيف يفسر هؤلاء تأويل الرؤيا وان التحاكم الى الله سبحانه أحسن تأويلاً، وتأويل القصص وغيرها مما عرفت من المعاني المتعددة.

ومنهم من جعل التأويل مرادفاً للتفسير، ومنهم من أنكر ان يكون التأويل من المفاهيم التي هي مداليل للألفاظ وأقتصر على كونها من الأمور الخارجية العينية[٢] رغم أن مقتضى المقابلة بين التأويل والتشابه في الآية المتقدمة (آل عمران/٧) الذي هو في مدلولات اللفظ أن يكون التأويل كذلك، بل ان استعمال كلمة التأويل في صرف اللفظ عن معناه الحقيقي وعدم إرجاعه إلى معناه الصحيح متداول في عصر صدر الإسلام كقول الصحابة «... تأول فأخطأ ...»[٣] وقوله صلى الله عليه وآله: «... إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يُقَاتِلُ بَعْدِي عَلَى التَّأْوِيلِ كَمَا

---

(١) القرآن في الإسلام / ٤١.

(٢)تفسير الميزان: ج: ٣؛ ص ٢٧.

(٣) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ؛المتقي الهندي ؛ ج ٥ ؛ص ٦١٩ ؛ رقم ١٤٠٩١؛ مؤسسة الرسالة ؛ الطبعة: الخامسة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

قَاتَلْتُ عَلَى التَّنْزِيلِ فَسُئِلَ النَّبِيُّ ص مَنْ هُوَ فَقَالَ خَاصِفُ النَّعْلِ يَعْنِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام ... »[1].

الثاني: أن التفسير إذا أريد به بيان المعنى الظاهر من الآية أو ما سميناه بالمدلول التصوري فيكون التأويل غيره وإذا أريد بالتفسير هو فهم مراد المتكلم سواء كان ظاهراً أو باطناً فيكون التأويل – في موارد الدلالة اللفظية – مرادفاً للتفسير بل الأمر أوسع من ذلك فقد يقال عن تأويل الرؤيا تفسيرها قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

(١) الكافي (ط – الإسلامية) ؛ ج٥ ؛ ص١١ . الخصال، الشيخ الصدوق، ص ٢٧٦

الفصل الثاني

معدات المفسر وأدواته

الفصل الثاني

معدات المفسر وأدواته

ينبغي للمفسر ان يكون مستحضراً لأدوات التفسير ومعداته ومقدماته وهي على صنفين:

الصنف الأول: العلوم التي تكون كالمبادئ لعلم التفسير.

الصنف الثاني: الملكات النفسية والعقلية للمفسر فإن القرآن لا يعيه إلا أصحاب القلوب الطاهرة والعقول السليمة، ولا يفهمه إلا المطهرون الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، فبمقدار طهارة قلبه واتصاله بالمطهرين المعصومين عليهم السلام يكون فهمه اجود.

هذا بغض النظر عن الفيض الإلهي الذي هو سبب الأسباب فإن ولوج عالم القرآن تشريف لا يناله إلا ذو حظ عظيم، وليس على الإنسان إلا ان يهيئ المطلوب منه والباقي على الله سبحانه ففي حَدِيثِ عُنْوَانِ الْبَصْرِي الطَّوِيل عَن الصَّادِقِ عليه السلام « ...لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ التَّعَلُّمِ إِنَّمَا هُوَ نُورٌ يَقَعُ فِي قَلْبِ مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ فَإِذَا أَرَدْتَ الْعِلْمَ فَاطْلُبْ أَوَّلًا فِي نَفْسِكَ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ وَ اطْلُبِ الْعِلْمَ

بِاسْتِعْمَالِهِ وَ اسْتَفْهِمِ اللَّهَ يُفَهِّمْكَ ...»[1] أي أن الإحاطة بالعلوم ليست هي العلة التامة لحصول العلم وإنما هي المقتضي وشرط التأثير الإمداد الإلهي.

ولمزيد من البيان نشرح هذه المعدات والادوات:

الصنف الأول:
العلوم التي هي مبادئ علم التفسير ومقدماته:

الأول: علوم العربية: فإن القرآن كتاب منزل بلسان عربي مبين فقد شاء الله تبارك وتعالى وهو اللطيف بعباده الخبير بقدراتهم وما يصلحهم أن يوصل إليهم حقائقه الواقعية بنفس الألفاظ التي يتداولونها والمعاني التي يستظهرونها من الألفاظ وجعل هذه الظواهر حجه فيما بينه وبين عباده منجزّة عليهم لما بيّن، ومعذرةً لهم لو انكشف لهم أن ما أخذو به كان خلاف الواقع، ولو أراد أن يتخذ طريقاً آخر لتفهيم مطالبه لبّينه إليهم ولأرشدهم إليه، ولا يفهم هذا اللسان العربي المبين إلا من أحاط بأسرار اللغة وفنونها ودقائقها.

---

(١) منية المريد ؛ ص١٤٨

وتشتمل على عدة علوم: علم المعجم أي معاني المفردات وعلم النحو وعلم البلاغة بأقسامه الثلاثة البيان والبديع والمعاني وعلم الصرف ولا يعني ذلك الإحاطة بكل تفاصيلها واستحضارها بل حصول الملكة عنده للوصول إلى معرفة ما يريد من مظانّه.

وينبغي ألا يكون مقلّداً لغيره بل يجتهد لنفسه ويستنبط، مع استثمار جهود السابقين والاستفادة منها، فلا يكفي كلام أهل المعاجم لمعرفة المعنى الحقيقي للكلمة وتمييزه عن المجاز لان المعاجم تسجّل غالباً المعاني التي استعمل فيها اللفظ، والاستعمال أعم من الحقيقة والمجاز، فعلى المفسر استقراء موارد استعمال الكلمة وبموجب القواعد المقررة يستخرج معناها، فإن قول اللغوي ليس بحجة ـ كما قرَّر في علم الأصول ـ بل هو مؤيد ومرشد ومساعد وكذا في القواعد النحوية .

كما ينبغي أن يكون مطّلعاً على أساليب العرب في كلامهم، فلا يكون المفسر مفسراً إذا لم يكن عارفاً بمعاريض الكلام ولحن الخطاب قال الامام الصادق عليه السلام:« حَدِيثٌ تَدْرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ حَدِيثٍ تَرْوِيهِ وَ لَا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فَقِيهاً حَتَّى يَعْرِفَ مَعَارِيضَ

كَلَامِنَا وَ إِنَّ الْكَلِمَةَ مِنْ كَلَامِنَا لَتَنْصَرِفُ عَلَى سَبْعِينَ وَجْهاً لَنَا مِنْ جَمِيعِهَا الْمَخْرَجُ» [١] فقد نزل القرآن بلغة « إِيَّاكِ أَعْنِي وَ اسْمَعِي يَا جَارَةُ »[٢] كما في الحديث[٣] ويحصل ذلك بالإطلاع المتزايد على أدبيات العرب والكتب المقرّرة لشرح نكاتها واسرارها، وقد يكون المفسر ذا ذوق سليم وسليقه قويمه وطبع مستقيم فيغنيه عن كل ذلك.

الثاني: علوم القرآن: المشتملة على معرفة الناسخ والمنسوخ والمُحكم والمتشابه والمكي والمدني وترتيب السور والآيات وتاريخ القرآن من جمع وتدوين أسباب النزول والقرآءات وتاريخها وسيرة القراء وإعجاز القرآن وصيانته عن التحريف.

ولِلصوق هذه العلوم بالتفسير بل التفسير أحد علوم القرآن فقد دأب المفسرون على البحث والتحقيق فيها وتدوين نظرياتهم وآرائهم في هذه الأمور ضمن التفسير فجعلها بعضهم مقدمات للتفسير (كالشيخ

---

(١) معاني الأخبار ؛ ص٢ . بحار الأنوار – العلامة المجلسي – ج ٢ – الصفحة ١٨٤.

(٢) هذا مثل يضرب لمن يتكلم بكلام يريد به غير المخاطب.

(٣) عن الامام الصادق عليه السلام الوارد في الكافي (ط – الإسلامية) ؛ ج٢ ؛ ص ٦٣١

البلاغي في آلاء الرحمن والسيد الخوئي في البيان) وتناولها آخرون في تضاعيف الكتاب بحسب المناسبة أو ورودها في آيات كريمة كصاحب الميزان فيتكلمون عن النسخ في قوله تعالى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٥] وعن إعجاز القرآن في تفسير آيات التحدي بالقرآن كقوله تعالى ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ وعن المحكم والمتشابه والتأويل في قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] وعن نزول القرآن نجوماً بحسب المناسبات وما تقتضيه الحكمة له في قوله تعالى ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] كما يتطرقون إلى الحوادث والوقائع المرتبطة بنزول الآيات بحسب مواضع تلك الآيات.

الثالث: التاريخ: ونعني به تاريخ الأمم السابقة لمعرفة سنن الله تعالى فيها التي أكّد القرآن على ثباتها وجريانها في الجميع وقد اهتم

القرآن ببيانها لإلفات نظر الأمم اللاحقة وتحذيرهم من مغبة السير على مثل طريقتهم، وكذا ينبغي الاطلاع على معرفة تاريخ العرب قبل الإسلام ومعرفة وضعهم المقارن للبعثة لاستيعاب مدى أثر القرآن في حياتهم والنقلة العظيمة التي حققها فيهم، ولفهم كثير من المعالجات التي تكفلت بها الآيات القرآنية وتثبيت القيم الصحيحة التي كانت موجودة، وتاريخ الشخصيات القرآنية من أنبياء وغيرهم وتاريخ الدعوة الإسلامية من أول البعثة حتى التحاق النبي الأعظم صلى الله عليه وآله بالرفيق الأعلى.

إن القرآن لا يُفهم حق فهمه إلا في ظل مراحل الحياة التي عاشها المسلمون من بداية الدعوة حتى نهايتها حتى تكون كأنك واحد منهم وتعايش النص القرآني في ظرف نزوله، فتراه في بداية البعثة يلقي العقائد الحقَّة ويدافع عنها ويسخّف عقائد المشركين ويقدم الأدلة لدحضها، ويصور صغارة الإنسان وضعفه تجاه خالق السماوات والأرض القادر على كل شيء فيضرب الأمثلة لذلك، ثم يصوّر مشاهد القيامة لتثبيت المؤمنين وينذر المشركين.

ولما زاد الأذى على المسلمين شدّ آزرهم ووعدهم النصر، وحكى لهم من أخبار الأمم السابقة ما يهوّن عليهم ما يلاقوه ويشحذ هممهم ويزيد عزمهم، إلى أن قلّ الناصر لرسول الله ﷺ واستضعفه الأعداء قصّ له رعاية الله سبحانه للأنبياء السابقين وتخليصهم من أعدائهم وهم في قبضتهم ثم إنزال النصر عليهم في النهاية وبين تعالى لنبيه ﷺ أن العاقبة لهم.

حتى نزل الامر بالهجرة وتنظيم المجتمع في المدينة والامر بالقتال، وشدّهم الله تعالى دائماً إليه وان يكونوا ذاكرين له مخلصين في عملهم مطعيين لله ورسوله ﷺ، لذا فهم انما انهزموا لعصيانهم الله سبحانه ورسوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وهكذا يتابع قضاياهم ويعالج مشكلاتهم حتى ما يدور في مكنون ضمائرهم ودخائل نفوسهم، فهو يربّيهم على انه تعالى معهم أينما كانوا.

ثم تجد في القرآن مخاطبة فئات عديدة ممن ناوؤا الرسول ﷺ كاليهود والمنافقين والمتخاذلين فتارة بالجدال وأخرى بالتهديد،

وهو في خلال ذلك ينزل من التشريعات ما يصلح حياتهم فردياً واجتماعياً حتى اكمل الله دينه وأتم نعمته بالولاية ورضي لهم الإسلام ديناً.

الرابع: علم الكلام ومعرفة العقائد الصحيحة والاستدلال عليها، فإنها من الجهات التي أهتم بها القرآن وسعى إلى ترسيخها، وأمر بجدال المشركين لتثبيتها، بل ان موضوعه الرئيسي هو إثبات حقيقة التوحيد وما يتفرع عنها من المعارف الإلهية والعقائد الحقّة.

الخامس: علم الفقه واصوله حيث تشغل آيات الأحكام – بحسب المصطلح – مساحة واسعة من القرآن تصل على قول بعضهم إلى خمسمائة آية لا يستطيع استيعابها ومعرفة مداليلها إلا من له باع واسع في الفقه، كما ان مقدمات علم الفقه واصوله وقواعد الاستنباط والتعاطي مع النصوص مما يحتاجها المفسر لوحدة منهج البحث وادواته بين الفقه والتفسير فكلاهما يتعاملان مع النصوص الشرعية واستظهار المراد منها كما سيتضح إن شاء الله تعالى.

السادس: العلوم الطبيعية والاجتماعية وغيرها: كالفلك والطب وعلم النبات والحيوان وغيرها، ليستطيع المفسر التوصل إلى الأسرار التي

اودعها الله سبحانه في مخلوقاته وأشارت إليه الآيات الشريفة للتنبيه على عظمة الله سبحانه وجميل صنعه وللدلالة عليه وإقامة البرهان على توحيده، وينبغي الاطلاع على العلوم الاجتماعية لنفهم اسرار التشريع والنظام الذي وضعه الله سبحانه للبشر.

السابع: الاخلاق والعرفان: وهو من العلوم المهمة فإن القرآن كتاب هداية وإصلاح نزل لتكميل النفوس وارتقائها في درجات الكمال فتزداد الاستفادة منه في هذا المجال بمعرفة النفس وملكاتها الفاضلة والرذيلة واستعدادها للتكامل وطرق المعالجة وخفاياها ولم يغب عنّا الحديث الشريف «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»[1]

الثامن: علم دراية الحديث ونعني به الإحاطة بمجاميع الأحاديث الشريفة، وطرق الاستفادة الصحيحة منها وتمحيصها، وتمييز الصحيح عن غيره متناً وسنداً، والقدرة على فهم مداليلها ومعالجة التعارض والتهافت بينها، وتطبيقها على ما يصح من التفسير وفهم دور الرواية في تفسير القرآن.

---

(١) مكارم الأخلاق ؛ ص٨

الصنف الثاني:
الملكات النفسية والعقلية للمفسر:

الأول: طهارة القلب وصفاء النفس: فإن القرآن يحمل بين طياته إشارات تفتح خزائن العلوم والحقائق الواقعية التي وصفها أنها في ﴿كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨] وفي آية أخرى ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ*فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[البروج: ٢١-٢٢]أي مستتر ومصون عن وصول أي يد وإنما يفهمها ويتوصل إليها ويمسّ حقائقها من طهّر قلبه من الرذائل وصفت نفسه، حتى عادت مرآه صافية قابلة لتلقي تلك الحقائق، قال تعالى ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة: ٧٩]والقدر المتيقن منهم أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ﴾(ال عمران/ ٧)، وكما ان غير المتطهر من الحدث ليس له أن يمس ظاهر المصحف الشريف، كذلك فإن من كان باطنه غير متطهر من الذنوب ومرآة قلبه غير صافية من الدرن لا يستطيع ادراك حقائقه، وان حجب الحقائق عن مثل هذا رحمة به لان إفاضة العلم على غير أهله خطر عليه ويسوق صاحبه إلى الهاوية كما جاء في قوله تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ

مِنَ الْغَاوِينَ﴾[الأعراف: ١٧٥] ويمكن التمثيل لذلك بالمطر فإنه إذا نزل على أرض مزروعة بالورود صعد منها شذى طيب، وإذا أصاب أرض القاذورات صعدت منها رائحة نتنة، وكذلك العلم فإذا ورد قلباً مربى بتربية صالحة فإن عطره سيملأ العالم وإذا ورد قلباً قد علاه الرين وصدأ الذنوب فإنه يملأ العالم فساداً وضلالة.

فالقرآن له مراتب عديدة من الفهم كلها صالحة للانطباق على اللفظ ولا تنافي بينها ويؤكد ذلك مضامين أحاديث كثيرة «إِنَّ لِلْقُرْآنِ ظَهْراً وَ بَطْناً وَ لِبَطْنِهِ بَطْنٌ[1] إِلَى سَبْعَةِ أَبْطُنٍ»[2] أو (سبعين بطناً) وهي رمز للكثرة ولا تفتح هذا المعاني الا على من نور الله قلبه بالمعرفه وعقله بالبصيرة.

نقل المرحوم السيد محسن الحكيم عند بحث (استعمال اللفظ في اكثر من معنى) عن بعض الأعاظم - دام تأييده - إنه حضر يوما

---

(١) الظهر هنا مشتق من الظهور و البطن من البطون. و المراد بهما ان له ظاهرا و باطنا، و الظاهر هو: ما دل عليه اللفظ بالمطابقة و الباطن: ما دل عليه اللفظ بالالتزام، و لما كانت اللوازم متعدّدة تعدّد الباطن بتعدّدها كما قال الى سبعة أبطن، و ذلك يظهر و يخفى بالنسبة الى قوة الفهم و ضعفه.

(٢) التفسير الصافي – الفيض الكاشاني ؛ ج ١ ؛ الصفحة ٣١ ؛ المقدمة الثامنة .

منزل الآخوند (ملا فتح علي قدس سره)مع جماعة من الأعيان منهم السيد إسماعيل الصدر رحمه الله والحاج النوري صاحب المستدرك رحمه الله والسيد حسن الصدر دام ظله فتلا الأخوند رحمه الله قوله تعالى: ﴿وَٱعلَمُوا أَنَّ فيكُم رَسُولَ ٱللَّهِ لَو يُطيعُكُم في كَثير مِّنَ ٱلأَمر لَعَنِتُّم وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِليكُمُ ٱلإِيمانَ ...﴾ الآية ثم شرع في تفسير قوله تعالى فيها: حبب إليكم ... الآية وبعد بيان طويل فسرها بمعنى لما سمعوه منه استوضحوه واستغربوا من عدم انتقالهم إليه قبل بيانه لهم، فحضروا عنده في اليوم الثاني ففسرها بمعنى آخر غير الأول فاستوضحوها أيضا وتعجبوا من عدم انتقالهم إليه قبل بيانه، ثم حضروا عنده في اليوم الثالث فكان مثل ما كان في اليومين الأولين ولم يزالوا على هذه الحالة كلما حضروا عنده يوما ذكر لها معنى إلى ما يقرب من ثلاثين يوما فذكر لها ما يقرب من ثلاثين معنى وكلما سمعوا منه معنى استوضحوه، وقد نقل الثقات لهذا المفسر كرامات قدس الله روحه)[1].

(١)حقائق الاصول – السيد محسن الحكيم ج١، صفحة ٩٥.

اقول: هذا كله غيض من فيض القرآن الكريم ولا زلنا نسمع ونقرأ للعارفين وجوهاً ومعاني لتفسير القرآن نجد وضوح انطباقها على الآيات ونعجب من غفلتنا عنها، لكن من صفت مرآة نفسه ينقشع عنها رين الغفلة وظلمات الذنوب، ولازلنا نسمع من العارفين تطبيقات معمقة للآيات الشريفة وما فهم القرآن حق فهمه من لم يع معانيه ويحسّها بقلبه وروحه وليس فقط بعقله وستجد في تطبيقات الراسخين في العلم والمطهرين ما يوضح ذلك[1].

(١) ولتقريب الفكرة ننقل ما ورد في كتاب رجال الكشي؛ ص: ١٣٨ عن الامام الصادق عليه السلام في توضيح ما صدر عنه من ذم لزرارة وهو من اجلاء اصحاب الامامين الباقر والصادق عليهما السلام: (عن عبد الله بن زرارة، قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: أقرأ مني على والدك السلام وقل له: إني إنما أعيبك دفاعا مني عنك، فان الناس والعدو يسارعون الى كل من قربناه وحمدنا مكانه لإدخال الأذى في من نحبه ونقربه ويرمونه لمحبتنا له وقربه ودنوه منا، ويرون إدخال الأذى عليه وقتله، ويحمدون كل من عبناه نحن فإنما أعيبك لأنك رجل اشتهرت بنا وبميلك الينا وانت في ذلك مذموم عند الناس غير محمود الأثر بمودتك لنا ولميلك إلينا، فأحببت أن أعيبك ليحمدوا أمرك في الدين بعيبك ونقصك ويكون بذلك منا دافع شرهم عنك. يقول الله عز وجل: (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان ورائهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً) هذا التنزيل من عند الله صالحة، لا والله

الثاني: الموضوعية: ونعني بها إنصاف الحق وعدم التحيّز وان لا تأخذه في الله لومة لائم فإذا أوصله دليله إلى شيء فليصرح وليلتزم به وان خالف هواه او معتقده او تقاليده، وليجعل القرآن هو الحاكم على كل ذلك لا محكوماً لها ومستنداً يصححها.

الثالث: عدم مواجهة النص القرآني بأفكار مسبقة وقناعات ثابتة عقائدية او فلسفية او علمية أو تاريخية بحيث لا يستطيع المفسر التنازل عنها حتى لو فهم من القرآن غيرها، فتجده يتكلّف توجيه النص القرآني ليثبت مطلوبة ويجعل القرآن تابعاً له لا أنه تابع للنص القرآني، وهذه من أهم مشاكل التفسير ومناشئ انحراف المفسرين التي سنذكرها ان شاء الله تعالى، فالصحيح أن على المفسر ان يواجه النص بفكر مجرد ويستنطقه ويستثير خفاياه حتى تحصل له القناعة بمفاد النص.

ما عابها إلا لكي تسلم من الملك،ولا تعطب على يديه،ولقد كانت صالحة ليس للعيب فيها مساغ والحمد لله، فافهم المثل يرحمكم الله، فأنك والله أحب الناس إلي وأحب أصحاب أبي حياً وميتاً. فأنك أفضل سفن ذلك البحر القمقام الزاخر، وإنّ من ورائك ملكاً ظلوماً غصوباً يرقب عبور كلّ سفينة صالحة ترد من بحر الهدى ليأخذها غصباً ثم يغصبها وأهلها، ورحمة الله عليك حياً ورحمته رضوان عليك ميتاً).

الرابع: المنهجية وعدم الفوضى بل لابد ان يضع المفسر منهجاً يسير عليه وينظم مسيرته الطويلة فيحدّد أولا المسلك الذي سيختاره وماهي أدواته وكيف يستعملها ويستفيد منها وما هي خطة البحث وماهي مادته؟ ما موقفه من الروايات.

الخامس: أن يعيش المفسر الأجواء أو الظروف التي نزل فيها النص وكأنه انزل عليه وينتقل بعقله وروحه الى الفترة السعيدة من تاريخ البشرية تلك التي عاشها المسلمون في ظل الوحي واحضان الرسالة والتلقي المباشر من رسول الله ﷺ مستفيداً مما اشترطناه من الاطلاع التفصيلي على تاريخ تلك الفترة، ومن قرأ سيرة قوم فكأنه منهم وقد عاش بينهم.

وعندئذ سيجد من طعم الآيات ما لا يجده غيره لذا لم يكن المسلمون الأوائل بحاجة إلى التفسير الا نادراً، لأنهم كانوا يعيشون ظرف النص وأسباب النزول ويفهمون جيداً ماذا يريد الله سبحانه من تلك الآية.

روى سيد قطب حادثة تبين مثل هذه الحالة وملخصها انه كان ينصت الى قارئ يتلو سوره النجم وينتقل بين آياتها وكانه يعيش

لحظه نزولها حتى وصل الى نهاياتها وما فيها من الوعيد والتبكيت المرعب، فاهتز كيانه وارتجف جسمه وانهمرت عيناه، فلما وصل الآية الاخيرة الامرة بالسجود لم يملك جسده واطاع امر السجود تلقائيا، وقال: وادركت في هذه اللحظة ان حادث السجود[١] صحيح، وان تعليله قريب، انه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القران ولهذه الايقاعات المزلزلة في سياق هذه السورة[٢].

السادس: الاطلاع الواسع على جهود المفسرين والوجوه التي يعرضونها والتأمل في امكان انطباق النص عليها فانها توسع دائرة التدبر في الآيات الكريمة وفهم المراد منها، مضافاً الى ما في تنوعهم الفكري والثقافي والعقلي من تنمية للملكة وصقلها وتوجيهها، ولمعرفة مكامن الضعف وأسباب الخطأ والانحراف عندهم، ولا يكون ذلك إلا بالاستقراء المتزايد للتفاسير والمقارنة

(١) ما ورد في مصادر العامة من سجود قريش عند تلاوة النبي (صلى الله عليه وآله) سورة النجم وما افتروه من (الغرانيق العلى) وانه سبب وصول الخبر بإيمان قريش الى مهاجري الحبشة فعادوا الى مكة، فسجود قريش لم يكم لهذه الأكاذيب وإنما لان القرآن ملكهم ببيانه وهم اعرف الناس بلغة العرب فلم يملكوا الا الطاعة حين أمرهم به.

(٢) انظر في ظلال القران: ٧/ ص٦٣٧.

بينها فإن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس، وقد استفدنا من هذا الاستقراء للخروج بمعلومات قيمة نحو أسباب انحراف المفسرين ومناهجهم ونقاط القوة عندهم.

السابع: التجرد عن المؤثرات النفسية والبيئية والاجتماعية والزمانية والمكانية، وانا أعلم أن ذلك صعب مستصعب إلا عند من عصم الله فإنها تترك أثرها على اتجاه تفكير المفسر بوضوح سواء شاء أم أبى، كتفسير الألفاظ والمعاني القرآنية بالأفكار المادية[1]، لذا ينقل عن بعض الفقهاء (والبحث الفقهي والتفسيري يتشابهان إلى حد بعيد) أنه حين البحث عن مسألة نجاسة ماء البئر طمّ البئر في بيته لئلا يتجه نفسياً بسبب وجوده في بيته وحاجته الى مائه إلى القول في الطهارة.

وبدون هذا التجرد يبقى المفسر يعدّ رباط الخيل في مواجهة القنبلة الذرية والصواريخ العابرة تمسكاً باللفظ ولو فهم مثلا انه مصداق من مصاديق القوة العسكرية التي يمكن أن تتغير من حين لآخر وذكرها الله تعالى لمناسبتها لمستوى المتلقين ولا يصح الوقوف عندها لما جزم بذلك.

---

(١) راجع أسباب انحراف المفسرين

وبذلك نردّ على ما يقوله المستشرقون من ان القرآن قد تأثر بالبيئة النبي نزل فيها بدليل تطرقه لبعض الأعراف والتقاليد الاجتماعية، فهذا تفكير بعيد عن الإسلام والإيمان بأن مصدر القرآن هو الله سبحانه وهو ناشئ من الجو الذي عاشوا فيه ونظرتهم إلى الاناجيل على أنها تمثل فهم أصحابها لتعاليم السيد المسيح عليه السلام وليست نصوصاً مقدسة لذلك فتحوا باب النقاش فيها.

الثامن: التجربة الاجتماعية الواسعة والفهم المعّمق للواقع من جميع الجهات لان القرآن كتاب إصلاح وهداية ومعالجة لمشاكل المجتمع فيكون أوسع التفاسير فهماً أكثرها تطبيقاً على الواقع.

هكذا يتعايش المفسر مع القرآن ويتلقى خطابه تارة كمسلم يريد معرفة تكاليف ربه، واخرى كجندي يستلم الاوامر، واخرى كقائد يستلهم القرارات الصائبة في اللحظات الحاسمة، واخرى كداعية للإصلاح والتغيير الاجتماعي يريد معرفة طرق الاصلاح والهداية والعلاج المناسب لكل أمة ولكل مجتمع ولكل شريحة وتارة كالذي يلتمس الطريق لهداية النفس وتهذيبها وتكميلها وهو في كل ذلك مؤمن مسّلم لربه وخالقه ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥].

الفصل الثالث

مناهج المفسرين

الفصل الثالث

منـــاهج المفســـــرين

ونعني بالمنهج: الخطّة العامة التي يتبعها المفسّر في استعراض السور والآيات والتعامل معها آية آية أو مقطعاً مقطعاً أو سورة سورة أو موضوعاً موضوعاً، وهو الاتجاه الاتي في الفصل الرابع فاننا نريد به المادة العلمية التي تشكّل الذوق العام للتفسير فهذا يهتم بالبلاغة وذاك بالعقيدة وآخر بالفلسفة والعرفان ورابع بالرواية والحديث وخامس بالنظريات العلمية والمكتشفات الحديثة ليطبق النصوص القرآنية عليها.

ونستطيع ان نقرب فكرتهما بالمادة والهيئة في المشتقات ففي كلمة (قائم) هيئة وهي صيغة اسم الفاعل ومادة وهي القيام، فكذلك هنا، فان المنهج هو بمثابة هيئة البحث وهيكله ونظامه، أما الاتجاه فيمثل مادة البحث وعناصره الأساسية الغالبة فيه.

والذي يلاحظ كلام الباحثين القرآنيين يجد فيه عدم وضوح استعمال كلا المصطلحين والخلط بينهما، وقد عرفت التباين الواسع بينهما مفهوماً ومورداً .

إنه من القصور أو التقصير الذي لا مبرر له الاقتصار على اتجاه دون آخر أو منهج دون آخر فإن في ذلك تحجيماً لدور القرآن الكريم وتضييقاً لأفقه الواسع الرحيب وإبعاداً له عن هدفه الأسمى وغايته القصوى، وهي هداية البشر وتكميلهم وصلاح أمرهم في الدنيا والآخرة، أما تلك العلوم المختلفة فهي وسائل وشواهد لتعزيز الهدف وتوضيحه وتحصيل القناعة به، أما التركيز عليها فأنه من جعل الوسيلة والأداة هي الغاية، مما ادّى الى ضياع هدف الآيات القرآنية بين ركام هائل من الأبحاث العلمية، وكان الحري بالمفسرين توظيف وتسخير كل تلك الأدوات (مناهج واتجاهات) لخدمة الهدف الأساس، فيتحرك المفسر مع القرآن حيث يتحرك لا إنه يفرض الجهة التي يلوي إليها عنان الكتاب الحكيم ويحمله عليها شاء أم ابى.

فلابد للداخل في أي مشروع (ومنه المشروع التفسيري وهو من أضخمها) أن يجعل نصب عينه الهدف ويرسم الخطة الموصلة إليه بتفاصيل طرقها وبقدر ما تكون الخطة صحيحة ومتقنة يأمن المفسر

من الانحراف والخطأ وتكون له بمثابة المرشد الأمين الذي يدله على الطريق في وسط العوائق والموانع وأسباب الزيغ والسقوط .

ويمكن ان نلحظ هنا عدة مناهج:

المنهج الأول: التعرض لشرح المفردات القرآنية وايضاح المراحل التي مرّ بها اللفظ حتى اكتسب المعنى المعين ككتاب مفردات القرآن للراغب والنهاية لابن الأثير ومجمع البحرين للطريحي[1]، أو شرح بعض الآيات القرآنية المختارة لغرض معين كمعاني القرآن للفراء،أو بصيغة دفع إشكالات وإيضاح لشبهات وإجابة لأسئلة تتعلق بآيات القرآن كـ كتاب (املأ ما منّ به الرحمن) لأبي بقاء العكبري (ومنة المنان في الدفاع عن القرآن) للسيد محمد الصدر(رضوان الله تعالى عليه).

المنهج الثاني: المنهج التجزيئي أو الطولي: وهو ما جرى عليه المفسرون قديماً وحديثاً حيث يبدأون بأول الكتاب وهو سورة الفاتحة وينتهون بنهايته ويختارون نصاً معيناً قد يكون آية أو مقطعاً وربما سورة كاملة بحسب ما يقتضيه السياق أو وحدة النظم أو

(١) وصدر لاحقاً كتاب (التحقيق) للمصطفوي.

المناسبة ويفسرونها ويعرضون المعاني المحتملة ويتطرقون خلالها إلى بحوث متنوعة في مختلف فنون المعرفة بحسب ما يفهمه المفسر أو يجد له علاقة مع النص المختار .

المنهج الثالث: المنهج الموضوعي أو التوحيدي ويكون باختيار المواضيع التي تنتظم فيها الآيات الشريفة سواء كان موضوعاً فقهياً أو عقائدياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً حيث يلّم شتاتها ويجمع متفرقاتها ويبحث فيها جميعاً مرة واحدة ليخرج بفهم قرآني متكامل عن الموضوع عنوان البحث، فمنشأ تسميته بالموضوعي كون محوره موضوعاً معيناً لا النص القرآني كما هو المفروض في التفسير التجزيئي، ولا يتوهم أن منشأ التسمية هو الموضوعية مقابل التحيز و الميل إلى رأي معين فإن هذا شرط ضروري في كلا المنهجين.

وهذا المنهج يشبه إلى حدٍ بعيد البحث الفقهي الاستدلالي المعتاد فإن الفقيه إذا أراد معرفة الحكم في مسألة معينة فإنه لا يكتفي بدراسة كل رواية على حدة بل، ولا بمجموع الروايات التي تتضمن نفس لفظ المسألة المراد معرفة حكمها، وانما يلاحظ جميع

الروايات التي تتضمن تلك المسألة أو ترتبط بها من قريب أو بعيد، والمنهج نفسه يُتبع في التفسير الموضوعي فإذا أراد تحصيل المفهوم القرآني لمسألة معينة كعلاقة شكر المنعم بزيادة النعمة في قوله تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ فإنه لا يكتفي بها وإنما يجدها المفسر مصداقاً جزئياً لقوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ فالعبد يذكر خالقه بالشكر والخالق يذكر عبده بزيادة النعم وترتبط بقوله تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ والشكر من أوضح مصاديق الذكر وبه تطمئن القلوب بزيادة النعم وتواترها على الشاكر.

وقد جرى على هذا المنهج كل من كتب في مختلف الموضوعات في المنظور القرآني كالاقتصاد وعلوم الطب في القرآن، أو نمو المجتمعات الإنسانية وسقوطها وامراضها، أو القصص القرآني لكن الذي نقّح فكرة هذا المنهج ووضع معالمه الرئيسية هو كتاب المدرسة القرآنية[1] وبدأ بأول المواضيع وهو السنن التاريخية في القرآن الكريم .

---

(١) للسيد الشهيد محمد باقر الصدر ولم يكن ممكناً حين كتابة هذا البحث التصريح باسمه في اجواء بطش النظام الصدامي المقبور.

وهذا المنهج – أعني استنباط فهم قرآني متكامل عن جميع مفرداته – ضروري لكل من يباشر تفسير القرآن حتى التجزيئي فإنه لا يستطيع أن يفهم الآية الشريفة إلا بضمها إلى أخواتها، فيستعين ببعضها وبالروايات أيضاً على فهم البعض الآخر، لكن يبقى نظره مقتصراً على النص محل البحث ولأجله سمّي تفسيراً تجزيئياً، كما أن التفسير الموضوعي لا يستغني عن التجزيئي، فإنه الخطوة الأولى له حتى يخرج بفهم لأساسيات واوليات معاني القرآن من اوله لآخره.

ثم يبدأ بـ(خطوات التفسير الموضوعي) وهي:

الأول: تحديد الموضوع المراد معرفته وفق المنظور القرآني واوليات معانيه، ونفترض أنّه يمثل مشكلة فكرية تتطلب الحل، أو واقعاً فاسداً يراد معالجته، او نظاماً صالحاً يسعى الى اقامته، أو أزمة لابد من حلها، فالخطوة الأولى الالتفات إلى الواقع وتعيين الموضوع

الثاني: جمع واستقصاء الآيات التي ترتبط بالعنوان من قريب او بعيد نفياً أو اثباتاً.

الثالث: دراسة العلاقة بين هذه الآيات والتوفيق بينها للخروج بالنتيجة النهائية بحسب الآيات الشريفة.

الرابع: تحصيل الروايات التي تعرضت للموضوع نفياً أو اثباتاً والتحقيق فيها للخروج بمحصلتها النهائية.

الخامس: مقارنة نتائج الخطوتين الثالثة والرابعة مع ملاحظة نوع العلاقة بين الآيات والروايات مستفيداً من رؤى المفسرين السابقين وقراءاتهم المتنوعة وهو ما سيأتي بحثه إن شاء الله تعالى.

وقد قرّب صاحب كتاب المدرسة القرآنية فكرة المنهجين بتنظيرهما بالبحث الفقهي فقال: « ...ويمكننا أن نقرب إلى أذهانكم فكرة هذين الاتجاهين المختلفين في تفسير القرآن الكريم بمثال من تجربتكم الفقهية، فالفقه هو بمعنى من المعاني تفسير للأحاديث الواردة عن النبي والائمة عليهم السلام ونحن نعرف من البحث الفقهي أن هناك كتبا فقهية شرحت الأحاديث حديثا حديثا، تناولت كل حديث وشرحته، وتكلمت عنه دلالة أو سندا أو متناً، أو دلالة وسندا ومتناً، على اختلاف اتجاهات الشراح. كما نجد ذلك في شراح الكتب الأربعة وشراح الوسائل، غير أن القسم الأعظم من

الكتب الفقهية والدراسات العلمية في هذا المجال لم تتجه هذا الاتجاه بل صنفت البحث إلى مسائل وفقا لوقائع الحياة وجعلت في إطار كل مسألة الأحاديث التي تتصل بها وفسرتها بالقدر الذي يلقي ضوءا على تلك المسألة ويؤدي إلى تحديد موقف الإسلام من تلك الواقعة التي تفترضها المسألة المذكورة، وهذا هو الاتجاه الموضوعي على الصعيد الفقهي، بينما ذاك هو الاتجاه التجزيئي في تفسير الأحاديث على هذا الصعيد.

كتاب الجواهر في الحقيقة شرح كامل شامل لروايات الكتب الأربعة ولكنه ليس شرحا يبدأ بالكتب الأربعة رواية رواية وإنما يصنف روايات الكتب الأربعة وفقا للحياة، وفقا لمواضيع الحياة، كتاب البيع، كتاب الجعالة، كتاب إحياء الموات، كتاب النكاح، ثم يجمع تحت كل عنوان من هذه العناوين الروايات التي تتصل بذاك الموضوع ويشرحها ويقارن فيما بينها ويخرج بنظرية لأنه لا يكتفي بأن يفهم معنى هذه الرواية فقط بصورة منفردة، ومعنى هذه الرواية بصورة منفردة إذ مع هذه الحالة من الفردية لا يمكن أن يصل إلى الحكم الشرعي، وإنما يصل إلى الحكم الشرعي عن طريق دراسة

مجموعة من الروايات التي تحمل مسؤولية توضيح حكم واحد أو باب واحد من أبواب الحياة، ثم عن طريق هذه الدراسة الشاملة يستخرج نظرية واحدة التي تعطي من قبل مجموعة من الروايات لا من قبل رواية رواية .

هذا هو الاتجاه الموضوعي عن شرح الأحاديث.

ومن خلال المقارنة بين الدراسات القرآنية والدراسات الفقهية نلاحظ اختلاف مواقع الاتجاهين على الصعيدين فبينما انتشر الاتجاه الموضوعي والتوحيدي على الصعيد الفقهي وما خطا الفقه والفكر الفقهي خطوات في مجال نموه وتطوره حتى ساد هذا الاتجاه جل البحوث الفقهية، نجد أن العكس هو الصحيح على الصعيد القرآني حيث سيطر الاتجاه التجزيئي للتفسير على الساحة عبر ثلاثة عشر قرنا تقريبا، إذ كان كل مفسر يبدأ كما بدأ سلفه فيفسر القرآن آية آية.

إذن الاتجاه الموضوعي هو الذي سيطر على الساحة الفقهية بينما الاتجاه التجزيئي هو الذي سيطر على الساحة القرآنية.

وأما ما ظهر على الصعيد القرآني من دراسات تسمى بالتفسير الموضوعي أحيانا من قبيل دراسات بعض المفسرين حول موضوعات معينة تتعلق بالقرآن الكريم كأسباب النزول أو القراءات أو الناسخ والمنسوخ أو مجازات القرآن فليس من التفسير التوحيدي والموضوعي بالمعنى الذي نريده، فإن هذه الدراسات ليست في الحقيقة الا تجميعا عدديا لقضايا من التفسير التجزيئي لوحظ فيما بينها شيء من التشابه، وفي كلمة أخرى ليس كل عملية تجميع أو عزل دراسة موضوعية، وإنما الدراسة الموضوعية هي التي تطرح موضوعا من موضوعات الحياة العقائدية او الاجتماعية او الكونية وتتجه الى درسه وتقييمه من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصدده))[1].

اقول: ينبغي ملاحظة الفرق بين غرضي العلمين (التفسير والفقه) لنعرف لماذا سار كل علم على منهج مغاير للآخر، فإن همّ المفسر إيضاح معاني المفردات والسياقات القرآنية وكأن غرض العلم هو هذا لا ان يُحصّل نظرية قرآنية حول موضوع معين، أما الفقيه فإن

(١) المدرسة القرآنية – السيد الشهيد محمد باقر الصدر، ص ١٥-١٧.

واجبه استنباط حكم الشريعة في موضوع معين ومن الخلل غير المغتفر ان يقف عند شرح الروايات وتفسيرها وبيان المراد منها فينبغي الالتفات إلى أن ما يظهر من مقايسة البحث التفسيري على البحث الفقهي في كل الجهات قياس مع الفارق بل يجب الاحتفاظ لكل منهما بخصوصياتهما مع استفادة من تجارب كلا الحقلين.

مقارنة بين المنهج التجزيئي والمنهج الموضوعي:

الأول: أن كلاً منهما لا يستغني عن الآخر فلابد للمفسر من المرور بتفسير القرآن من اوله إلى آخره ويحيط بالمعاني والمفاهيم القرآنية الأساسية قبل أن يختار موضوعاً معيناً ليفسره تفسيراً موضوعياً من خلال الآيات الشريفة المرتبطة به وفق الخطوات السابقة، كما أن التفسير التجزيئي لا يستغني عن مراحل التفسير الموضوعي فإن تفسير آية آية لا يكون صحيحاً إلا بملاحظتها مع اخواتها، فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً وهو بيان لكل شيء، وسيأتي تفصيله عند الكلام عن تفسير القرآن بالقرآن.

الثاني: أن التفسير الموضوعي يعطي مفاهيم ونظريات قرآنية متكاملة عن المواضيع المبحوثه، أما التجزيئي فإنه يكتفي ببيان معنى الآية او المقطع الذي هو فيه، وقد لايجد نفسه مسؤولاً عن تفسيره في ضوء كل الآيات الواردة في موضوعه أي الخروج برؤية متكاملة تنتظم فيها كل الآيات القرآنية التي تعرضت لذلك الموضوع او تلك القضية.

الثالث: أن التفسير التجزيئي عرضة للخطأ والاشتباه أكثر بسبب هذه التجزئة في النظر إلى الآيات، ولو نظر إليها كمجموعة متكاملة لكانت الرؤية أوضح والنتيجة أصّح، ولذا تجد صاحب كل مذهب او قول مهما كان بعيداً عن الصواب كالقول بالتجسيم يستطيع أن يطبق آيةً ما على معتقده بسبب عزل هذه الآية عن الآيات المفسرة لها.

الرابع: ان المنهج التجزيئي لا يطّور علم التفسير ولا يتقدم بنفس خطوات حقول المعرفة الأخرى بسبب تجزئته النصوص وجعل جلّ اهتمامه اكتشاف مؤدى النص ويمكن ان نذكر كمنبه على ذلك

تطور البحث الفقهي ونضجه وتكامله بسبب اختياره المنهج الموضوعي.

الخامس: لما كانت المواضيع التي يمكن اثارتها في القرآن الكريم واسعة جداً وكثيرة ومتشعبة فلا يمكن ادعاء تحصيل تفسير كامل، أما التجزيئي فيمكن أن يؤدي هذا العمل باستيعابه شرح الآيات القرآنية جميعها .

السادس: ان الأنسب بالتفسير الموضوعي أن يسمى دراسات أو بحوث قرآنية لا تفسيراً، فإن الإنسان إذا أراد أن يفهم معنى آيةٍ ما فسوف لا يجدها فيه، نعم سيجد الموضوع العام الذي تندرج فيه، والمفهوم القرآني الذي تدعو له، لذا على المفسّر الموضوعي ان يبيّن اولاً معنى الآيات على نحو ما يذكره التفسير التجزيئي قبل ان ينتقل بسلاسة الى تفسير الموضوع ليكون تفسيراً فعلاً، وهو ما سنعمل عليه ان شاء الله تعالى.

السابع: أن التفسير الموضوعي حي متحرك مواكب للحياة باعتبار المواضيع التي سيختارها المفسر، وقد استفاد المصلحون والقادة

الحركيون من هذا المنهج فجعلوا تفسير القرآن مسرحاً لعرض أفكارهم وتوجيه الأمة وتنبيهها.

الثامن: أن التفسير التجزيئي يعطي الأهمية لألفاظ النص ويحوم حولها ويحاول اكتشاف أسرارها أما الموضوعي فيهتم بالمعاني ويرى الألفاظ جسراً يُعبر عليه المتكلم لإيصال المعنى المكتوب إلى السامع.

التاسع: أن المنهج الموضوعي أكثر ملائمة مع ما ورد من ان معاني القرآن لا تنتهي فإن الألفاظ (التي يهتم بها التجزيئي) مهما تمخضت عن معانٍ فإنها تنتهي، أما تطبيقاتها على شؤون الحياة المختلفة التي هي مواضيع التفسير الموضوعي فإنها لا تنتهي بل تتجدد وتتنوع مدى الدهر وفي كل منها تجد للقرآن رأياً، ويكون مصداقاً لقوله صلى الله عليه وآله: «... كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَ خَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَ حُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ... وَ لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ ...»[1] ويكون مصدراً مستمراً على العطاء واثراء الفكر البشري بمفاهيم وأفكار ورؤى ومعالجات جديدة.

---

(١) تفسير العياشي ؛ ج ١ ؛ ص ٣.

العاشر: أن دور المفسر التجزيئي نظري علمي بحت حيث يكتفي ببيان المعاني المحتملة للآيات الشريفة ويسكت المفسر حيث ينتهي النص القرآني، اما الموضوعي فإنه يستنطق القرآن ويستثيره لإنه يواجه النص وهو يحمل موضوعاً معيناً بكل ما يحتويه من مشاكل وصعوبات وتجارب انسانية متوارثة ومساوئ ومحاسن، ويطلب من القرآن أن يضع النقاط على الحروف – كما يقولون – ويطلب رأيه فيه، ولما كان القرآن تبياناً لكل شيء فهو لا ينتهي والمفسر لا يسكت بل يبقى محاوراً للقرآن لا مستمعاً فقط يتفهم ما القي عليه بحسب ما أوتي من أدوات ومعدات.

والقرآن ليس كتاباً علمياً صرفاً بل هو كتاب عملي جاء ليغير ويصلح ويهدي ويرشد، وهو يواكب الواقع المعاش وينطلق من المعارف الحقة والتجارب التاريخية للأنبياء والأمم والمجتمعات.

فإذا ما أريد له أن يكون فاعلاً ومؤثراً فينبغي عرض كل تفاصيل الحياة عليه وأخذ القول الفصل والحكم الحق منه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «... ذلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ

أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ: أَلاَ إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتي، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ...»[1].

ولك ان تطبق هذا المعنى على علم الفقه فإنه كان مواكباً للتغييرات والمستجدات الحاصلة في المجتمع، ولم يوضع من اول الأمر مرتباً بالشكل المعروض في الرسائل العملية، وإنما رأى الفقهاء معاملة أسمها المزارعة أو المساقاة او المضاربة، أو وجدوا حالات تحتاج إلى بيان حكم الشرع كالزنا واللواط والظهار والإيلاء فاستنطقوا مصادر التشريع واستجمعوا كل ما فيها حول كل موضوع على حدة، ولك ان تتصور ماذا سيكون مستوى علم الفقه لو اقتصر على شرح كتب الحديث رواية رواية وحديث حديث اشتاتاً مبعثرة من دون أن يجمعها عنوان رابط.

وهذا لا يعني الكمال في علم الفقه فإنه يجب على الفقهاء ان يعيشوا عصرهم ويعالجوا نظريات الشريعة وأحكامها في الموضوعات الجديدة.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٥٨. بحار الأنوار: ٩٢ / ٢٣ / ٢٤.

وتبقى الحاجة إلى التفسير الموضوعي مستمرة ما دام الواقع المعاش في تطور وتجدد وتغيير.

الحادي عشر: ان التفسير الموضوعي خطوة متقدمة بالنسبة للتجزيئي الذي ظهر أنه أحد مقدماته وقواعده والأول يلم شتات الثاني ويجمع نتائجه ويربط بينها.

المنهج الرابع: التفسير البنائي: حسب ما أسماه أصحابه كالدكتور محمود البستاني، يجعل محوره السور القرآنية سورة سورة، ويتناول كل سورة جملة واحدة، فإن لكل سورة غرضاً معيناً تريد طرحه والاستدلال عليه وتستخدم شتى الأدوات لتثبيته سواء كان امثالاً أو قصصاً أو تشريعات، ولذا يمكن اعتبار هذا المنهج شكلاً من أشكال التفسير الموضوعي، فينطلق هذا المنهج التفسيري من هذه النقطة وهو وجود غرض او أكثر لكل سورة يكون كالخيط الذي يلم آياتها التي تعرض بإشكال مختلفة .

ولهذه الفكرة بالذات بغض النظر عن المنهج.. ما يبررها ويمكن ان نذكر عدة منبهات على ذلك:

الأول: أن انتظام الآيات في سور كان بأمر رسول الله ﷺ فقد جاء في الرواية ان الآيات عندما كانت تنزل كان رسول الله ﷺ يقول: «... اجْعَلُوهَا فِي سُورَةِ كَذَا وَكَذَا...»[1] ولا يمكن صدور مثل هذا الفعل منه ﷺ – وهو الحكيم – اعتباطاً وجزافاً بل لغرض يريد اكماله وتحقيقه من كل سورة.

الثاني: ان القصص وغيرها تكرر أحيانا في سور متعددة فيختلف عرضها وأسلوب طرحها والعنصر المهم المراد ابرازه منها من سورة إلى سورة، ففي سورة تذكر مجملة وفي أخرى مفصلة، وتذكر بعض تفاصيلها في سورة وبعضها الآخر في غيرها، وقد يذكر نفس الفصل ككل بصور وانحاء مختلفة في العرض، مما يؤدي إلى اختلاف الشيء المثار في نفس المخاطب، وما ذلك إلا لأن الغرض المطلوب أداءه في كل سورة يختلف عن غيرها فتصاغ القصة بما ينسجم مع ذلك الغرض.

---

(١) كتاب الناسخ والمنسوخ – النحاس، ص ٤٧٧، المحقق: د. محمد عبد السلام محمد، مكتبة الفلاح – الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨

الثالث: وضوح الغرض في سور عديدة كسورة التوحيد حتى سميت نسبة الرب، والاحساس الوجداني بوجود غرض لكل سورة تجمله مقدمتها ثم يدخل في التفاصيل ثم تلخصه نهايتها كسورة يونس المسوقة لبيان السنة الإلهية المحكمّة في علاقة الأنبياء بأممهم المكذبين لهم وجريانها في هذه الأمة إن اقتفت آثارهم، كما ان سورة هود تُبيّن ان أصل المعارف هو التوحيد يتحلل فيصير امراً أخلاقياً او حكماً شرعياً أو أصلاً دينياً، وتتركب هذه الامور فينتج منها شيء واحد هو أصل التوحيد – كما يؤكد عليه السيد الطباطبائي في الميزان –.

الرابع: نفس الظاهرة آنفة الذكر أعني قبول النصوص القرآنية للتحليل والتركيب، وإلا كيف يمكننا أن نحلّل شيئاً إذا لم يستند إلى وحدة اجزائه وكيف يمكننا أن نجمع الأشياء ونؤلفها في مركب إذا لم تستند الأجزاء إلى الوحدة التي تنتظمه، خذ لذلك مثلاً الأوامر الحكومية فإن أمراً من سطرين يصدر من رئيس الحكومة يتحلل عند الوزارات إلى أمور متعددة، بحسب أشكال مسؤوليتها ومساحات صلاحيتها، ويتحلل عند التشكيلات داخل كل

وزارة بنفس الشكل ثم تتوسع قاعدته وتنتشر أجزاءه وهي نفس ذلك الامر الأول فتؤدي إليه ويتحلل فيؤدي إليها.

الخامس: وجود محور مشترك تدور حوله تفاصيل السورة سواء كانت قصصاً أو امثالاً أو تعاليم، فتجد ان محور سورة الكهف هو نبذ زينة الحياة وعدم الاغترار بها وقد بدأت السورة بقوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ثم طرحت قصة أصحاب الكهف الذين اعرضوا عن البهرجة الزائفة للحياة الدنيا رغم أنهم من المتنفذين في المجتمع، وكذا ذو القرنين الذي ملك شرق الأرض وغربها وبالمقابل تعرض العنصر المضاد كذلك وهو صاحب الجنتين الذي تشبث بالحياة الدنيا رغم تفاهة ما يملكه فكفر بنعمة الله تعالى وشكك بقيام الساعة وبعرض هذه الصور المختلفة المتضادة ينّبه على ان النبذ ليس دائماً بالعزلة عن المجتمع – كموقف أصحاب الكهف – بل ربما بالخوض في صميم الحياة الاجتماعية وتكريسها في ما يرضي الله سبحانه كتصرف ذي القرنين.

ويمكن ان تكتشف أن محور سورة الأحزاب هو نفي الازدواجية وخلط الأوراق- كما يقولون – حيث بدأت بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ثم نفت الازدواجية بين الحب والكراهة ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ والخلط بين الأم والزوجة المظاهرة أو الولد الصلب والمتبنى ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ .

السادس: تكرار اللفظ في السورة الواحدة مما يشعر بمدخليته في أداء غرض السورة ففي سورة مريم وردت كلمة الرحمة ومشتقاتها (١٢) مرة مما يركز هذا المعنى في ذهن المتلقي مع تعزيزها بالمعاني القريبة منها كالجنان والمباركة والحفاوة والتقرّب.

السابع: ما استنبطه السيد الطباطبائي في تفسير الحروف المقطعة أوائل السور وحاصله: أن هذه الحروف المقطعة رموز لمضامين السور واغراضها، لذا تجد التشابه بين مضامين السور المتشابهة في الحروف المبدوءة بها، بل تتقارب الفاظ الآيات المفتتحه لها كما في مفتتح الحواميم من قوله ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ

الْحَكِيمِ﴾ او ما في معناه وما في مفتتح سور (الر) من قوله ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ وما في معناه، ونظير ذلك في مفتتح الطواسين، وما في مفتتح سور (الم) من نفي الريب عن الكتاب أو ما هو في معناه .

بل الأمر أكثر من ذلك فإن في السور التي تبتدأ بمجموع حروف سورتين كالأعراف المبدوءة بـ (المص) تجتمع مضامين السور المبدوءة بـ (الم) و(ص) وكذا سورة الرعد المصدّرة بـ (المر) جامعة المضامين (الم) و(الر) فهذه الحروف رموز بين الله سبحانه وبين رسوله صلى الله عليه وآله خفية عنا إلا بمقدار أن نستشعر أن بينهما وبين المضامين المودعة فيها ارتباطاً خاصاً، ولعل هذا معنى ما روته أهل السنة عن علي عليه السلام – على ما في المجمع: « إن لكل كتاب صفوة و صفوة هذا الكتاب حروف التهجي».[1]

وعلى أية حال فإن وجود غرضٍ ما أو أكثر لكل سورة مما لا ينبغي الشك فيه سواء عرفناه أم لم نعرفه، وقد نبّه كثير من المفسرين إلى

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ؛ ج١ ؛ ص ١١٢ .

ما توصلت إليه أفهامهم من أغراض السور عند البدء بتفسيرها فما الجديد الذي يضيفه هذا المنهج؟

يقول الدكتور محمود البستاني وهو ممن تخصّص في هذا المنهج وكرّس جهوده له حتى أنجز كتابه (عمارة السور القرآنية) وقد طبع في خمس مجلدات انتهى فيه من دراسة السور جميعاً: « ... المسوّغات التي حملتني على تبنّي هذا المنهج هي ملاحظتي للدراسات التفسيرية قديماً وحديثاً، سواء أكانت تفاسير عامة أو تفاسير فنية، إنها إمّا أن تتناول السورة الكريمة من خلال الدراسات (التجزئية) للآيات بحسب تسلسلها في السورة، أو تتناول الدراسة الموضوعية للظواهر المطروحة فيها وكلتا هما لا تتناولان السورة، بما إنها نص تترابط وتتناغم آياته ومقاطعه وموضوعاته وعناصره وأدواته فيما بينها، خلا بعض الإشارات العابرة إلى العلاقات بين بعض الآيات أو الموضوعات مع البعض الآخر تحت مصطلحات من نحو (النظم) كما هو ملاحظ في الدراسات القديمة، وهي إشارات جزئية -كما قلنا - لبعض المواقع من النص.

وأما الدراسات الحديثة فبالرغم من أنّ البعض منها قد توفّر على هذا الجانب إلا أنه – في نطاق ما اطلعت عليه – لم يتناول السور جميعاً بقدر ما اقتصر على البعض منها أو تناولها ولكن من خلال (المناخ الفكري العام) للسورة حيث أن تناول المناخ العام إنما يضطلع بتبيين موضوعاتها والمحاور التي تركز عليها، وهو أثر يختلف تماماً عن التناول البنائي أو العضوي لها، أي: صلة كل آية بما قبلها وما بعدها،وصلة كل مقطع بذلك، وصلة هذه جميعاً مع بعضها الآخر، وصلة النص من حيث بدايته ووسطه ونهايته مع بعضها، ثم صلة أولئك بالعناصر الصورية والإيقاعية ونحوهما أو بالأدوات الفنية كالأداة القصصية وغيرها. أولئك جميعاً لم يتوفر عليها دارس موروث أو معاصر وهو ما حداني إلى تبني هذا المنهج بطبيعة الحال... »[١] .

إن «... ثمة اسرار تكمن وراء انتظام القرآن الكريم في سور (مستقلة) وهو ما يضطلع المنهج (البنائي) بتوضيحها... »[٢].

(١) مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العدد الرابع ١٩٩٨، ص ٢٥-٢٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٧.

أن المعرفة التي تستنج من ملاحظة (الكل) تكون أوضح واتم من ملاحظة الجزئيات منفصلة عن بعضها سواء أنتقل من الجزئيات إلى الكل أو أدرك الكل أولاً ثم طبقه على الجزئيات وقد تختلف هذه الجزئيات في تفاصيلها ألا انها تشترك جميعاً في أداء الغرض الكلي، ولما كانت الموضوعات التي تناولها القرآن مهمة وخطيرة، ومن جهة أخرى فإن درجات الاستجابة والتلقي عند البشر متباينة بشكل كبير والقرآن نزل لهم جميعاً ويتكفل بهدايتهم وإصلاحهم جميعاً بشتى اذواقهم ومشاربهم، كان من الحكمة أن يبلغ الغرض بشتى الصور التي تساهم في توجيه المستمع إلى الغرض و خلق الاستجابة في نفسه لما تريد السورة ان توصله إليه، قال ﷺ:« إن النص (أياً كان نمطه) بما إنه يستهدف (توصيل) أفكاره إلى الآخرين، حينئذ فإن عملية (التلقي) أو (الاستجابة) للنص لا تحقق هدفها إلا من خلال استثارته عقليا وعاطفيا، وهو ما يتطلب معرفة بطرائق الاستجابة وما يواكبها من العمليات النفسية التي تفضي إلى تحقيق الآثار المطلوبة كافتتاح النص بظاهرة ما، أو إجمالها أو تفصيلها أو حذفها أو اختزالها، أو التدرج أو التصاعد بها، أو توشيحها بعناصر

تخيلية أو عاطفية: كالصورة أو الرمز وكالإيقاع، أو رفدها بأدوات قصصية أو حوارية ... الخ، أولئك جميعاً يعتمدها النص لتحقيق الآثار المطلوبة كما قلنا.

وفي ضوء هذه الحقائق المألوفة يمكننا أن نتبين أهمية الدراسة البنائية للنص... فما دام المتلقي يستجيب للنص من خلال (الكل) حينئذ فإن الانتهاء من تلاوة السورة الكريمة سوف تفضي بالمتلقي إلى أن يظفر بالحصيلة النهائية التي استهدفتها السورة أي تترك لديه انطباعاً أو تأملاً أو (معرفة إجمالية) حتى لو كانت غائمة أو مضيئة، بحيث تعكس أثرها عليه بنحو أو بآخر بحسب درجة (وعيه بالقراءة)، فعندما نتلو سورة ما عندئذٍ قد نركز عليها جميعاً أو على بعض مقاطعها دون البعض الآخر، لكن مع التركيز الشامل عليها نتحسس - دون أن نعي أسرار ذلك – (أن أثراً ما) قد تركته في ذاكرتنا قد يكون الأثر هو نبذ زينة الحياة الدنيا، أو الانبهار بإبداع الله تعالى، أو التخوف من المصير الأخروي،أو للتشجيع على الانفاق، أو الحرص على تزكية النفس ... الخ بحسب المحور الذي تحوم السورة عليه، أو محاورها المتنوعة، ولكن في الحالات جميعا

نحس بأثر إجمالي (مركب) من أفكارها الرئيسية والثانوية والعرضية والطارئة قد نسجها (التداعي الذهني) أو (التضاد) أو (التماثل) أو الآليات الذهنية والنفسية الأخرى التي تتشابك لتصوغ الأثر المشار اليه .

وبهذا يفترق التناول للسورة من خلال عمارتها العامة عن التناول لبعض آياتها أو مقاطعها حيث تنحصر معطيات ذلك في البعض المذكور كما لو كانت بتنأول ظاهرة الانفاق أو الصلاة أو الإبداع الكوني، أو غيرها فيما ينسحب أثرها الجزئي على المتلقي».[1]

وقال: « ... ففي سورة القمر التي تتحدث عن قيام الساعة ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ استخدمت ايقاعاً متجانساً مع شدة العقاب، حيث استخدم حرف السين وهو ذو علاقة بالساعة من حيث كونه حرف (استقبال) والساعة هي ظاهرة استقبالية، مضافاً إلى تكرار حروف السين بشكل ملفت مثل (من سقر) (سعر) (يسجدون) (مستطر) فيما وردت هذه العبارات في سياق الحديث عن اهوال

(١) المصدر السابق ص٢٧-٢٨

العقاب وكثير ما تستعمل قافية السين في الادب العربي عند ما تكون مناسبة القصيدة وغرضها التشاؤم والخوف والحزن.

اقول: يشبهه بعضهم بالجسم الإنساني فإن سقوط أي جزء منه او تشوهه يؤدي إلى خلل في الكل، والسر في ذلك يكمن في طبيعة أدراكنا للأشياء والمفاهيم التي تعتمد على النظرة الكلية لها سواء في الكون الذي حولنا او كتاب نقرأه او فكرة نتأملها قال رحمه الله: « ...من الحقائق التي ينبغي لفت النظر إليها أن علاقة الآيات بعضها مع الآخر لا تعني بالضرورة أن كل آية تجسد سببا أو مسببا لما قبلها وما بعدها بقدر ما تعني: أن ثمة شبكة من الخطوط تتواصل فيما بينها بنحو أو بآخر مباشرة أو بنحو غير مباشر، ولكنها تفضي في النهاية إلى (استجابة معرفية كلية) بالنحو الذي أوضحناه في إجابة سابقة...»[1]

وقد اتضح ان هذا المنهج من التفسير يعطي معرفة اجمالية كلية بسور القرآن الكريم، وهو إنما يشرح الآية بلحاظ وقوعها جزءاً من كل وبمقدار اندراجها في المجموع فيكون قاصراً عن إعطاء الأبعاد

(١) المصدر السابق ص ٣٢

المختلفة لكل آية أو سياق على حده، فإن لكل آية سواء كانت بصدد بيان حكم تشريعي أو فضيلة أخلاقية أو عظة وعبرة أو حكماً اجتماعياً لها معناها وهدفها المستقل غير الغرض العام الذي تشترك في أدائه مع غيرها لذلك يمكن الاستدلال بها وتحصيل غرض منها بعد انتزاعها من السياق، نعم يبقى هذا المنهج نافعاً في بيان جهة من جهات المعرفة القرآنية.

والنتيجة النهائية تتمثل بضرورة اشتراك المناهج الاربعة ليحصل الفهم المتكامل للآيات الشريفة، حيث يحدد معاني الالفاظ من معاجم المنهج الاول ثم يبين المنهج البنائي غرض السورة ككل، ثم يقوم المنهج التجزيئي بشرح الآيات بحسب مناسبات السياق، ثم ينفتح الكلام في التفسير الموضوعي حيث يمكن اختيار شتى الموضوعات التي يمكن تحصيل الرؤية القرآنية لها.

الفصل الرابع

اتجاهات المفسرين

الفصل الرابع

اتجاهات المفسرين

ونقصد بالاتجاه العلم او المادة التي تكون العنصر الرئيسي في التفسير فينطبع التفسير بطابعها ويتخذ وجهتها، ولذا أطلقنا على هذا البحث (اتجاه التفسير) لا (المنهج) كما اعتاد تسميته الباحثون في هذا المجال فأن المنهج كما قلنا تعني خطة المفسر في البحث.

ان اتجاه المفسّر يحدّد المبنى الذي يعتمده، ويحاول تطبيق الآيات القرآنية عليه ويجعلها شواهد على صحة مبانيه في العلم المعين، فبعضهم جعل نتائج الفلسفة هي المبنى فكان اتجاه تفسيره فلسفياً، وآخر جعل النظريات الكلامية هي الأساس فاصبح تفسيره كلاميا، وغيرهما اتخذ نتائج العلوم الطبيعية أو مفاد الرواية هي المعتمد وربما كان لبعضهم مكاشفات عرفانية يحاول أن يبرهن عليها من كتاب الله سبحانه.

ويمكن تحديد عدة اتجاهات تفسيرية كالآتي:

١- الاتجاه اللغوي: وهو من أقدم الاتجاهات وكانت نشأته طبيعية باعتبار نزول القرآن في مجتمع يهتم بالبلاغة والفصاحة والبيان، كما أن من نقاط قوته اعجازه البلاغي وتحدي البشر بها، والسبب الآخر تأثيره في تنقيح اللغة وتهذيبها وتأسيس علومها، لذا أصبح القرآن المصدر الأول للشواهد والاستدلال.

وقد أفلح أصحاب هذا الاتجاه في تقديم نظريات نافعة في اعجاز القرآن، والأسرار الأدبية الكامنة في الآيات ونقاط القوة فيها .

ولما كان المتصدون لهذا الاتجاه هم لغويون غالباً فكان لاهتمامهم هذا الأثر البالغ في صيانة اللغة العربية وتعميقها والمحافظة على الذوق العربي السليم والفهم الصحيح، ولولاها لقضى الاختلاط بالقوميات الأخرى، وتفشي اللهجات العامة الدارجة على اللغة الأصلية وعادت نصوص التشريع غريبة وصعبة الفهم.

ولكن مساوئ هذا الاتجاه كبيرة حيث حوّل القرآن الى كتاب ادبي يقتصر النظر فيه على اللفظ واحواله وتركيب الجمل وعلاقتها بالمعنى من دون التركيز على المعاني المكتنزة في الالفاظ، مع انها جوهر اللفظ وروحه وهي المقصودة للمتكلم، وبذلك أسقط القرآن

عن دوره الأساسي وهو هداية البشر وتكميلهم وارشادهم لما فيه صلاحهم، ومعايشة واقعهم والتماس الحلول منه، لكنهم أضاعوا وقتهم وجهدهم في المماحكات اللفظية والنزاعات اللغوية.

٢-الاتجاه الفقهي: وهو باب من أبواب التفسير الموضوعي الذي يجعل أحكام الشريعة موضوعاً له، وتوجد كتب عديدة في أحكام القرآن، وقد أستغل أصحاب المذاهب هذه الساحة لتأييد مذاهبهم وكرّست الكتاب الكريم لذلك.

ونحن وأن لم ننكر أهمية هذا الجانب في القرآن واشغاله مساحة معتدة بها، كما أنه يشكّل القدر المتيقن من احكام الشريعة الذي يمكن أن يتحّد المسلمون عليه .

ونقطة القوة الأخرى فيه بيان أن الوحي ليس عقيدة فقط وإنما هو شريعة ونظام أيضاً، وكم يكون هذا النظام كاملاً وصالحاً حين يكون صادراً من الخالق العظيم بعيداً عن تقنين البشر الناقص، ألا أن الاشتغال به دون غيره، واستغلال الكتاب لتأييد الفرق والمذاهب تفريط بهذا الكتاب الحكيم، مما جعل هذا الخلاف موروثاً بل

ومقدساً مادام قد صوّر لهم على أنه مستند على أصل الإسلام وهو القرآن.

٣-الاتجاه المأثوري: الذي جعل الرواية مصدراً للتفسير فإن وُجد نصٌ في السنة الشريفة فهو، وإلا أخذوا التفسير من الصحابة والتابعين لحسن الظن بهم وأنه «... بأيهم اقتديتم اهتديتم... »[١] كما زعموا، وكان شائعاً في صدر الإسلام وعصور التفسير الأولى .

وهو اتجاه نافع ويؤدي خدمة كبيرة لو استعمل بموازينه الصحيحة وأخذ من معدنه وهم أهل بيت النبوة وله ما يبرره فإن (أهل البيت أدرى بالذي فيه)[٢] فخير من فسر القرآن من أنزل عليه وفهم مقاصده ومراد المنزل جلّت آلاءه.

كما أنه يمثل مصدراً ثرّاً غنياً لأنه يصدر من معين لا ينضب، إضافة إلى أنه جهة موثوق بها لا يأتيها الريب .

ولكن ثغرات هذا المنهج كثيرة:

---

(١)(الكشف والبيان عن تفسير القرآن) للثعلبي ؛ ج ١٠؛ ص ٤٣٥؛ مجموعة محققين ؛ ط دار التفسير؛ الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

(٢)"أهل البيت أدرى بما فيه" هو مثل شعبي عربي يُقال لبيان أن أصحاب الشيء هم الأعرف بتفاصيله وخفاياه. ولا يوجد له سند في مصادر الحديث.

(منها): إنه عرضة لتدخل الكذابين والوضاعين وأهل الدس والتشويه، وكتب التفسير حافلة بالإسرائيليات التي مسخت العقائد الحقة، وكانت هجمة منظمة لتقويض أسس هذا الدين الجديد، وقد ساهم في حصولها عدة جهات:

نفسية: كنظر العرب يومئذٍ إلى أهل الكتاب على أنهم ناس متعلمون وبيدهم أسباب المعرفة وما سواهم جهلة أو عالة عليهم.

وسياسية: حيث جهدت السلطات الحاكمة على إقصاء المرجعية الحقيقة للأمة، ومكّنت الوضاع والمندسين وأهل الكتاب من تسويق الروايات غير المستندة الى أساس صحيح.

وثقافية: وهي رغبة المسلمين في الاطلاع على تفاصيل القصص مما لم يذكره القرآن، خصوصاً الأجيال التي لم تصحب رسول الله ﷺ ولم تعايش أحداث الرسالة فهي شغوفة – كما نحن الآن – للاطلاع على كل صغيرة وكبيرة من تفاصيل حياة رسول الله ﷺ .

واقتصادية واجتماعية: حيث أدّت الفتوحات الإسلامية وحياة الأنبياء السابقين وأممهم ووصلوا إلى حالة من الرخاء والترف الاقتصادي

الذي ولد فراغاً ملأوه بالاستماع إلى القصص ولو كانت أساطير من صنع اليهود – وتركوا العلوم والأعمال النافعة لهم .

و(منها) أنه حوّل القرآن إلى كتاب تاريخي قصصي مرتبط بالفترة الزمنية الذي نزل فيه أو حكى عنها ولم ينظر إلى تلك الاحداث بعين العظة والاعتبار واستخلاص الدروس والتجارب والسنّن المتحكمة في الأمم والأشخاص.

و (منها) تجميد العقل عن التدبر والتفكير الذي امر به القرآن، وعزله عن ممارسة دوره في تطبيق هذا الكتاب الحي على واقع الحياة والاهتداء به لوضع الحلول على طريقة صلاحه.

(ومنها) عدم معرفة الممارسين له للموازين والمعايير الصحيحة لقبول الرواية والنقل بل قد يغضون النظر عن كل شيء، فالمهم عندهم تحصيل روايةٍ ما عند تفسير الآية.

٤-الاتجاه العرفاني: ويبتني على المكاشفات والتجليات التي تحصل في قلوب العارفين وتظهر على مرآة أرواحهم فإن مستندهم في التفسير: عن قلبي عن ربي، وهو مسلك ذوقي وجداني ويمكن ان يطبقه على جميع الآيات الشريفة ويستدل بها على ما يريد إيصاله .

وهذا الاهتمام بالمعاني الباطنية ربما كان له أسباب، أحدها إنه جاء رداً على المسالك الأخرى المهتمة بالظاهر بينما للقرآن باطن عميق ومستويات عديدة من الفهم، وافاد السيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) أن من نتائج سلوك طريق العرفان هو الالتفات الى عدة معانٍ للآيات الكريمة [١]، وقد تقدم شاهد على ذلك[٢] (فالأرض هي النفس والليل ظلمة الذنوب والهجرة الخروج من بيت النفس الامارة بالسوء والسفر إلى الله سبحانه والفتح انفتاح القلب على الحقائق النورانية العلّوية وهكذا).

ولكن ليس هو السبب الوحيد فإن العرفاء وأرباب القلوب يرون أن الغرض الأول للقرآن الكريم هو (انقاذ المسجونين في سجن الدنيا المظلم، وخلاص المغلولين بأغلال الآمال والأماني، وإيصالهم من حضيض النفس والضعف والحيوانية إلى أوج الكمال والقوة الإنسانية، ومن مجاورة الشيطان إلى مرافقة الملائكة، بل الوصول

(١) راجع كتابي (قناديل العارفين): تفسير عرفاني ص ٢٥٤:

(٢) راجع صفحة: ٤٥

إلى مقام القرب، وحصول مرتبة لقاء الله التي هي أعظم مقاصد أهل الله ومطالبهم)[١].

قال بعض الباحثين[٢] « ...ولهذا فإنّ كتاب التفسير لابدّ من أن يكون كتاباً عرفانياً بالدرجة الأولى، يجسّد المقصد الأول والأساس للقرآن الشريف. والمفسّر الذي يغفل عن هذا المقصد والمقاصد الأخرى الأساسيّة لا يمكن أن نعدّه مفسّراً.. من هذا المنطلق صرّح الإمام – كما ذكرنا سابقاً – بأنّه «...لم يكتب إلى الآن التفسير لكتاب الله...» ذلك «...لأنّ معنى التفسير على نحو كلي هو أن يكون شارحاً لمقاصد الكتاب المفسّر، ويكون مهمة الناظر إلى بيان منظور صاحب الكتاب. فهذا الكتاب الشريف الذي هو بشهادة من الله كتاب الهداية والتعليم ونور طريق سلوك الإنسانية، يلزم للمفسّر أن يعلّم للمتعلم، في كل قصةٍ من قصصه بل في كل آيةٍ من آياته،

(١) الآداب المعنوية للسيد الخميني (قدس سره): ٣٢٣

(٢) السيد عبد السلام زين العابدين: بحث بعنوان " الامام الخميني مفسرا" منشور في مجلة قضايا اسلامية العدد الثاني ١٤١٦ /١٩٩٥ ص٣٩٤.

جهة الاهتداء إلى عالم الغيب وحيثية الهداية الى طريق السعادة، وسلوك طريق المعرفة الإنسانية...»[١].

ويتميز هذا الاتجاه بوجود مقدمات عملية لا علمية فقط، حيث يحتاج انفتاح القلب على الحقائق إلى رياضات ومجاهدات مضنية لا يسأم منها العارف بل تجده متحمساً لها، ويشترك بذلك مع كل من يسعى لتلقي العلم من الأعلى لا من الأسفل فإنهم يرون ان لتلقي العلم طريقين فإما أن يكسبه من الآخرين وهذا الطريق طويل وليس له ثمار كثيرة ومليء من اسباب الخطأ والاشتباه والانحراف، والآخر تهذيب النفس وتجلية مرآة القلب وتصفيتها حتى تعكس حقائق العلوم الواقعية مباشرة، ومثاله كمن اراد أن يسقى أرضه بماء، فإما أن يفتح له قناة من النهر تحمل له الماء ويكون مشوباً بالقاذورات والأوساخ بسبب مروره على أراضي مختلفة في درجات النقاوة، وأخرى يحفر بئرً في أرضه حتى يصل إلى عيون الماء الأصلية فيستقي ماءً زلالاً لم يدنسه شيء، فالأرض هي النفس والماء هو العلم ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾

(١) الاداب المعنوية:٣٣٣

وحفر البئر هو إزالة ما على عين القلب من ادران الذنوب والمعاصي حتى تنفجر ينابيع العلم، روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا أَخْلَصَ عَبْدٌ لِلَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً إِلَّا جَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ.»[1]

ويبقى هذا الاتجاه عرضةً لتسويلات النفس والـتأويلات وتدليس الشيطان وخدعه ودجل المخادعين ويجّمد العقل والتفكير والتدبرّ، ويقف عند حدود التأملات الباطنية.

كما أنه يشّجع على العزلة والاهتمام بتربية الفرد لا المجتمع، وان كان لهم رأي آخر فإنهم يقسمون العرفاء إلى طائفتين فطائفة تفنى ولا تحيا من جديد وأولئك الذين ادركهم الموت بعد إتمام السعي إلى الله فيبقون في حالة الفناء التام لا يعرفهم أحد، ولا يرتبطون بأحد، وطائفة هم الراجعون الى انفسهم بعد تمامية السير الى الله وفي الله الذين حصلت لهم حالة الصحو بعد المحو فعادوا إلى المجتمع من أجل مساعدتهم على تكميل نفوسهم وتهذيبها وتخليصهم من سجن النفس والطواغيت، وشياطين الإنس والجن

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ؛ ج٢ ؛ ص٦٩ .

فيعيش الهموم الاجتماعية ويشعر بمسؤولية التغيير ويثبت عليها أكثر من غيره.

٥- الاتجاه الفلسفي: ويعتمد على التعمل العقلي والنظر الدقيق، وقد دبّ هذا الأسلوب من التفكير إلى علماء المسلمين بعد تلاقح الحضارات وترجمة كتب الفلسفة اليونانية وغيرها مما أثار موجة من التساؤلات والتأمّلات العقلية.

وهو اتجاه له مساوئه، فانه باعتماده الكامل على التدقيقات العقلية وركونه إلى العقل كمصدر للمعرفة خسر مصادر مهمة وهي الكتاب والسنة، ونعلم ان الجربزة العقلية قد تجعل الحق باطلاً والباطل حقاً ثم ان الكتاب الكريم ليس كتاباً فلسفياً أو جاء ليؤسس نظريات عقلية.

كما أن هذا الاتجاه جعل القرآن مسرحاً لصراع الأفكار الفلسفية بحيث حمل كل فريق نظرياته على القرآن وخلط بين الوسيلة والغاية، فإن الكتاب العزيز جعل المطالب الفلسفية والمبادئ العقلية وسائل للوصول إلى هدفه الأسمى وهو الإيمان بالتوحيد وما يتفرع عليه من معارف، لكن الفلاسفة جعلوا هذه الوسائل غايات بل أن

تركيزهم عليها واغترارهم بها جعلهم ينظرون إليها أنها الأصل والقرآن مؤيد لهم، وإن اختلفت النصوص مع قناعاتهم فإنهم يؤولونها.

٦-الاتجاه الكلامي العقائدي: وهو الشائع في تفاسير المتكلمين وقد شاع أيام احتدام الصراع المذهبي ومن ورائه السياسة التي تريد أن ترفع طائفة او مذهباً على حسب الآخر، والذي يسرح النظر فيها يستطيع أن يكتشف ما كان يجري من صراعات عقائدية ظاهراً لكنها سياسية واجتماعية باطناً وخرجوا بنظريات تفوح منها رائحة السياسة، كالقول بالجبر والقضاء والقدر والمرجئة وبرروا بذلك تسلط الحكام بالقوة واستبدادهم وجورهم. وكان لهذا الاتجاه جذور في مرحلة ما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله لشرعنة ما حصل .

وظهر هذا التنظير واضحاً عند تسلط الامويين لذا حذّر أمير المؤمنين عليه السلام ابن عباس عند ذهابه إلى التحكيم بعد معركة صفين: «لاَ تُخَاصِمْهُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجُوه، تَقُولُ وَيَقُولُونَ،

وَلكِنْ حاجّهُمْ بالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصاً »[١]. أي يستطيع كل حزب ان يصرفه إلى معتقده ويستدل به على رأيه .

وقد غرق هذا التفكير المجتمع في نزاعات سالت فيها الدماء وضاعت فيها الجهود بين ركامٍ من الخلافات الفارغة، كفتنة خلق القرآن وتمزق المجتمع اشتاتاً يكفر بعضها بعضاً.

٧-الاتجاه العلمي: بدأ التطور العلمي للغرب ونظرياته ومكتشفاته في مختلف العلوم تسري إلى الشرق، وقد ارتبط هذا النهوض العلمي بالتحرر من التعاليم الدينية للكنيسة حيث وقف رجال الدين المنتفعون المتخلفون ضد هذا التقدم العلمي، ولم يدرك أبناء الشرق الفرق بين الكنيسة المنحرفة عندهم وتعاليم ديننا القويم فظنوا ان انطلاقتهم العلمية تتوقف على التحرر من تعاليم الدين وأحكامه، مما دفع بعض العلماء المخلصين إلى السعي للتوفيق بين القرآن والنظريات العلمية و إثبات أن لا تنافي بينها .

وهو اتجاه له مبرره فقد حثّ القرآن على التفكر في آيات الله الأنفسية والآفاقية ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ

(١) انظر: نهج البلاغة قسم الرسائل رقم ٧٧.

لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وهو من الطرق النافعة لتعميق الإيمان بالله سبحانه، ويعتبر خطوة نافعة للسعي لإظهار مواكبة القرآن لكل زمان ومكان ويقع ضمن خطة متكاملة للحث على العلم والبحث والتقدم وإلا فانّ هذا الاتجاه يبقى مستهلكاً لا منتجاً، لأنه يجتر النظريات العلمية الغربية المستوردة ويحاول تطبيقها على القرآن الكريم من دون أن يبدع أو حتى يساوي تقدم الآخرين وإذا علمنا أن حركة التطور العلمي عند الغرب أسرع من حركة نقل العلوم من الآخرين علمنا الهوّة الكبيرة التي تتسع باطراد بيننا وبينهم .

ثم أن فشل هذه النتائج العلمية ينعكس على نفس الآيات الشريفة ويشكك في صدقها وصدورها عن الله تعالى بينما الخلل ليس فيها وإنما في تطبيقها.

وأن هذا الاتجاه يهتم بالنتائج العلمية الطبيعية ولا يستفيد من التجارب الإنسانية في الحقول المعرفية الأخرى، وأن فيه تركيزاً لروح التبعية للآخرين وفيه انسلاخ عن تراث الأمة ومصادرها .

كما أن من عيوب صيغة الانفتاح على الغرب – لا الانفتاح نفسه – هو أخذ النتائج جاهزة دون الاستفادة من كيفية تحصيلها لنستطيع الاستغناء عنهم، بل تطويرها والتفوق عليهم كما حصل في الانفتاح الأول على الحضارة اليونانية والرومانية والفارسية.

كما أن هذا الاتجاه يجعل العلم أولاً والقرآن ثانياً وتابعاً له وهو يمثل معادلة معكوسة والعيب المشترك هو اغفال هدف القرآن الأسمى والخلط بين الوسيلة والغاية.

ويلاحظ أن بعض هذه التفاسير عامة لجميع الآيات وفي مختلف العلوم كـ (الجواهر في تفسير القرآن الحكيم) للطنطاوي الجوهري وبعضها خاص كـ (القرآن والطب الحديث) للمرحوم الشيخ محمد الخليلي و(من علوم الطب في الإسلام) للدكتور عارف القره غولي و(الأحوال المناخية والقرآن الكريم) و(علوم الهيئة في الإسلام) وغيرها.

٨-الاتجاه الحركي أو الاجتماعي: وهو أحدث الاتجاهات بدأ مع عصر النهضة والصحوة والتحرر في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي حيث أن أول من استند إلى القرآن وجعله المرجع لبعث

الأمة وإعادة الحياة لها واصلاحها وتخليصها من أمراضها الاجتماعية هو جمال الدين الافغاني (ويرى ان بعث الأمة واستنهاضها لن يتحقق من دون بعث القران وبعث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت، من حيث يأخذ بها الى ما فيه سعادتهم دنيا و آخرة)[1] وقد جعل القرآن عنوان حركته الإصلاحية فعندما يتكلم عن سبب انحطاط المسلمين يذكر قوله تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ وعن امتحان المؤمنين يذكر ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ وعن سنن الله في الأمم ومنهم المسلمون ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وعن الجبن وأثر الخوف في هزيمة الامة وذوبانها ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ وعن استناد الحكام واذلال الامة ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وهكذا وكأن القرآن محور كل الحركات الإصلاحية وتفسيره مسرحها لتحريك المجتمع وبثّ روح التغيير والإصلاح، فابن باديس

(١) مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العدد الرابع ١٩٩٨، ص ٨.

في الجزائر شرع بالتفسير درساً تسمعه الجماهير وحين ختمه سنة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م بعد خمس وعشرين سنة احتفلت الجزائر وقد ضاق المستعمر الفرنسي ذرعاً بروح المقاومة والوعي الجديد الذي أجّجته رؤى ابن باديس .

وينقل مثل هذا التأثير عن الشيخ المودودي في الهند وباكستان حيث امضى ثلاثين عاماً في حركة دؤوبة في العمل في سبيل الله وأعدّ تفسيره (تفهيم القرآن) ومضى على نهجهم المصري سيد قطب في تفسيره (في ظلال القرآن). وهذا الاتجاه مناسب جداً للمنهج الموضوعي في التفسير حيث يلتزم أصحابه بمواضيع تؤدي رسالة الإصلاح وبعث الروح الإسلامية الأصيلة في نفوس المسلمين ومحاربة شياطين الإنس والجن، فلماذا نقصر عنوان الشيطان على ابليس وجنوده من الجن وأن أشدّ منه شياطين الإنس الذين يصدّون عباد الله عن طاعته ويضلّونهم مصداقاً لقول ابليس ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وأن أهم مصاديق السحت سرقة ثروة الشعوب، والمطففون عنوان لكل من يأخذ من الامتيازات أكثر مما يعطي من الواجبات والمسؤوليات.

وبذلك يعطي هذا الاتجاه حركة وحيوية للقرآن ومواكبة للحياة ويخرجه عن عزلته المقيتة، ويبرز صفاته من القيمومة والهيمنة والهداية والبركة والشفاء والكرامة والنور وغيرها.

ألا أن دأب هذا الاتجاه اغفال قضايا كبيرة لعلها اهم من الإصلاح الاجتماعي وهي أصل العقيدة وتهذيب النفوس وتكميلها، كما ان اتجاه أهله إلى الصدام وإلغاء الآخر أفقده قدرته التغييرية في المجتمع التي هي الركيزة الأساسية لأي عمل آخر.

المحتويات

تعريف ..... ٣.
المقدمة: القرآن رائد التغيير الاجتماعي ..... ٥.
الفصل الأول معنى التغيير والتأويل ٢١
- معنى التفسير ٢٣
- معنى التأويل ٢٥
الفصل الثاني معدات المفسر وأدواته ٣٣
الصنف الأول: مبادئ علم التفسير ومقدماته ٣٦
- علوم العربية ٣٦
- علوم القرآن ٣٨
- التأريخ ٤٠
- علم الكلام ٤٢
- علم الفقه وأصوله ٤٢
- العلوم الطبيعية والاجتماعية ٤٢
- الأخلاق والعرفان ٤٣
- علم دراية الحديث ٤٤

الصنف الثاني الملكات النفسية والعقلية للمفسر ٤٤
- طهارة القلب وصفاء النفس ٤٤
- الموضوعية ..... ٤٨.
- عدم مواجهة النص القرآني بأفكار مسبقة ٤٩
- المنهجية وعدم الفوضى..... ٤٩..
- أن يعيش المفسر الأجواء أو الظروف التي نزل فيها النص ٤٩
- الإطلاع الواسع على جهود المفسرين..... ٥١
- التجرد عن المؤثرات النفسية والبيئية ..... ٥١.
- التجربة الاجتماعية الواسعة..... ٥٢
الفصل الثالث مناهج المفسرين ..... ٥٥..
- المنهج الأول ٥٩
- المنهج الثاني..... ٥٩..
- المنهج الثالث ٦٠
- المنهج الرابع..... ٧٣
الفصل الرابع اتجاهات المفسرين ٨٧

١- الاتجاه اللغوي ٩٠
٢-الاتجاه الفقهي ٩١
٣-الاتجاه المأثوري..... ٩٢
٤-الاتجاه العرفاني ٩٤
٥-الاتجاه الفلسفي ٩٩
٦-الاتجاه الكلامي والعقائدي ١٠٠
٧-الاتجاه العلمي ١٠١
٨-الاتجاه الحركي والاجتماعي ١٠٣
المحتويات ١٠٧